

سيد قطب والتفسير الإسلامي للتاريخ

أ. د. عماد الدين خليل

في إحدى مقاطع تفسير سورة الأنعام يورد سيد هذه المقولة وهو يقرأ الآية ﴿ **قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين** ﴾[1] : « إن السير في الأرض للاستطلاع والتدبر والاعتبار، ولمعرفة سنن الله مرتسمة في الأحداث والوقائع، مسجلة في الآثار الشاخصة وفي التاريخ المروي في الأحاديث المتداولة حول هذه الآثار في أرضها وقومها، السير على هذا النحو لمثل هذا الهدف وبمثل هذا الوعي، أمورٌ كلها كانت جديدة على العرب، تصوّر مدى النقلة التي كان المنهج الإسلامي الربّاني ينقلهم إليها من جاهليتهم إلى هذا المستوى من الوعي والفكر والنظر والمعرفة. لقد كانوا يسيرون في الأرض وينتقلون في أرجائها للتجارة والعيش، وما يتعلق بالعيش من صيدٍ ورعي .. إما أن يسيروا وَفق منهج معرفي تربوي فهذا كان جديداً عليهم، وكان هذا المنهج الجديد يأخذهم به، وهو يأخذ بأيديهم من سفح الجاهلية في الطريق الصاعد إلى القمة السامقة التي بلغوا إليها في النهاية.

« لقد كان تفسير التاريخ الإنساني وَفق قواعد منهجية كهذه التي كان القرآن يوجه إليها العرب، ووَفق سنن مطردة تتحقق آثارها كلما تحققت أسبابها - بإذن الله - ويستطيع الناس ملاحظتها وبناء تصوراتهم للمقدمات والنتائج عليها، ومعرفة مراحلها وأطوارها، كان هذا المنهج برمته في تفسير التاريخ شيئاً جديداً على العقل البشري كله في ذلك الزمان؛ إذ كان قصارى ما يروى من التاريخ وما يدوّن من الأخبار مجرد

مشاهدات أو روايات عن الأحداث والعادات والناس لا يربط بينها منهج تحليلي أو تكويني يحدّد الترابط بين الأحداث ، كما يحدّد الترابط بين المقدمات والنتائج وبين المراحل والأطوار ، فجاء المنهج القرآني ينقل البشرية إلى هذا الأفق ويشرح لهم منهج النظر في التاريخ الإنساني ، وهذا المنهج ليس مرحلة في طرائق الفكر والمعرفة . إنما هو (المنهج) الذي يملك وحده إعطاء التفسير الصحيح للتاريخ الإنساني »(٢) .

ويزيد هذا النصّ أهمية أن سيّد يهمّشه بهذه العبارة « يراجع التفسير الإسلامي للتاريخ » في كتاب « خصائص التصوّر الإسلامي ومقوّماته ، القسم الثاني » .

إذن فإن من بين فصول القسم الثاني من كتاب « خصائص التصور الإسلامي ومقوماته » الذي لم يتح له النشر لحدّ الآن ، فصل عن التفسير الإسلامي للتاريخ .

وإذا كان هذا الفصل ذو الأهمية الخاصة في فكر سيّد التاريخي قد ضاع مع الكتاب الأم الذي يضمّه بين جناحيه ، فإن بمقدورنا ــ لحسن الحظ ــ أن نعثر على معطيات سيّد التفسيرية للتاريخ ، على مساحات واسعة منها بعبارة أدقّ ، في كتابه الكبير (الظلال) ، تماماً كما أن بمقدورنا ــ لحسن الحظ كذلك ــ أن نعثر في (الظلال) نفسه على مساحات واسعة من كتابه الضائع المهم الآخر (في ظلال السيرة) . ونحن نستطيع أن نؤكد هذا بالنظر ما يتضمنه (الظلال) من مادة غنية في الحقلين : التفسير ، والسيرة ، وبالقياس ــ كذلك ــ على مساحات الأخذ والعطاء الواسعة بين (الظلال) وبين كتاب .قيّم آخر أتيح له أن يرى النور ، وأن يلعب دوره ــ كذلك ــ في الختم على مصير سيّد بما يضعه في صفّ الشهداء والقديسين : كتاب (معالم على الطريق) .

وثمة ما يتحتم أن يشار إليه هنا هو أن سيد في القسم الأول المنشور من كتابه (خصائص التصور الإسلامي ومقوّماته) والذي يبلور فيه الخصائص الأساسية للتصوّر الإسلامي ، إنما يرفد في الوقت نفسه الرؤية الإسلامية لتفسير التاريخ ويضع الكثير من أسسها النظرية ، قبل أن يدلف في القسم الثاني ، غير المنشور ، إلى الموضوع فيمسّه من قريب .

مهما يكن من أمر فإننا نجد في النصّ السابق تأكيداً على إحدى المقولات الأساسية في التفسير الإسلامي للتاريخ ، ترتبط بمنهج التفسير وتكتسب أهميتها من هذا الارتباط ، وهى أن القرآن الكريم يطرح لأول مرة في حقل الفكر التاريخي ، عبر مسيرته الطويلة ، مسألة الارتباط المحتوم بين المقدمات والنتائج في مجرى

الوقائع التاريخية ، وأن حركة التاريخ لا تمضي عبثاً وعلى غير هدى ، وإنما تحكمها سنن ونواميس وقوانين ترتب المصائر على اجتماع حشد من الوقائع والأحداث ، وتجعل من توجّه الفعل التاريخي بهذا الاتجاه أو ذاك ، أمراً محتوماً .

ليس ثمة عشوائية في مجرى التحقق التاريخي إنما هنالك النهايات التي تترتب بالحقّ والقسطاس على بداياتها القريبة والبعيدة ، ويكون الجزاء – دائماً – من جنس العمل ، فلا تطيش السهام ولا يغدو التاريخ مسرحاً عبثياً يقوم اللامعقول بدور البطولة فيه .

إن أحداً من روّاد الفكر التاريخي لم يقل بهذا قبل كتاب الله المعجز ، على كثرة ما كتب من دراسات تاريخية وما دبّج من أبحاث ومطولات ، وإن أحداً من رواد الفكر التاريخي لم يقل بهذا بعد مرور عدة قرون على تأكيدات القرآن ، ولقد جاء ابن خلدون لكي يقول هذا في « مقدمته » **ولكن بعد ما يقرب من ثمانية** قرون ، وهو لشدة دهشته لاكتشاف ناموسية الحركة التاريخية من بين رفاق البحث التاريخي عبر القرون ، لم يشر إلى أن القرآن الكريم هو الذي فتح الطريق وأشار في حشود آياته البينات إلى هذه الحقيقة الخطيرة في تحليل الصيرورة التاريخية .

وقرون أخرى كان عليها أن تمضى قبل أن يأتي من يواصل الطريق الذي اعتقد ابن خلدون – خطأ – أنه شقّه لأول مرة .

إن هذه الرؤية المنهجية البكر في فهم التاريخ والتعامل معه لهي واحدة من عجائب القرآن التي لا تنقضي ، وإن القول بها ، أو الكشف عنها ، أو التأكيد عليها في بيئة فكرية لم تكن قد بلغت النضج الذي يؤهلها لإفراز مقولات كهذه ، كما يتوهم الماديون ، ليدل بوضوح على الصيغة الفوقية التي يتسم بها كتاب الله ، وعلى الانفصال المحتوم – إذا صحّ التعبير – بين معطيات الله الشاملة وبين أفكار الناس الجزئية ، القاصرة ، المحدودة .. « والذين يأخذهم الدهش والعجب – يقول سيد – للنقلة الهائلة التي انتقل إليها العرب في خلال ربع قرن من الزمان على عهد الرسالة المحمدية ، وهي فترة لا تكفي إطلاقاً لحدوث تطور فجائي في الأوضاع الاقتصادية ، سيرتفع عنهم الدهش ويزول العجب لو أنهم حوّلوا انتباههم من البحث في العوامل الاقتصادية ، ليبحثوا عن السرّ في هذا المنهج الرباني الجديد الذي جاءهم به محمد صلى الله عليه وسلم من عند الله العليم الخبير . ففي هذا المنهج تكمن المعجزة وفيه يكمن السرّ الذي يبحثون عنه طويلاً عند الإله الزائف الذي أقامته المادية حديثاً : إله الاقتصاد . وإلاّ فأين هو التحوّل الاقتصادي المفاجىء في الجزيرة العربية

الذي يُنشىء من : التصورات الإعتقادية ، ونظام الحكم ، ومناهج الفكر ، وقيم الأخلاق ، وآماد المعرفة ، وأوضاع المجتمع :- كلّ هذا الذي نشأ في ربع قرن من الزمان ؟ »[٣].

* * *

في ختام تفسير سيد لهذه الآية ذات الدلائل ﴿ **ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين** ﴾[٤]، ينفذ سيّد إلى الرؤية الإسلامية لتفسير التاريخ ، سيما وأن منطوق هذه الآية يتصادى مع حشود من الآيات والمقاطع القرآنية عبر كتاب الله من أقصاه إلى أقصاه ؛ فهو من ثَم منطوق مؤكد ، يملك ثقله الكبير ودلالته التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها. إن هذا النص في القرآن ﴿ **فأهلكناهم بذنوبهم** ﴾ ، وما يماثله ، وهو يتكرر كثيراً في القرآن الكريم :- إنما يقرر حقيقة أن الذنوب تهلك أصحابها ، وأن الله هو الذي يهلك المذنبين بذنوبهم ،وأن هذه سنة ماضية – ولو لم يراها فرد في عمره القصير ، أو جيل في أجله المحدود – ولكنها سنة تصير إليها الأمم حين تفشو فيها الذنوب ، وحين تقوم حياتها على الذنوب ؛ هذه الحقيقة جانب من التفسير الإسلامي للتاريخ ، فإن هلاك الأجيال واستخلاف الأجيال من عوامله : فعل الذنوب في أجسام الأمم وتأثيرها في انتشار حالة تنتهي إلى الدمار ، إما بقارعة من الله عاجلة – كما كان يحدث في التاريخ القديم – وأما بالانحلال البطيء الفطري الطبيعي الذي يسري في كيان الأمم – مع الزمن – وهي توغل في متاهة الذنوب .

« وأمامنا في التاريخ القريب نسبياً الشواهد الكافية على فعل الانحلال الأخلاقي والدعارة الفاشية ، واتخاذ المرأة فتنة وزينة ، والترف والرخاوة والتلهّي بالنعم . أمامنا الشواهد الكافية من فعل هذا كله في انهيار الإغريق والرومان – وقد أصبحوا أحاديث – وفي الانهيار الذي تتجلى أوائله وتلوح نهايته في الأفق في أمم معاصرة كفرنسا وإنجلترا – كذلك – على الرغم من القوة الظاهرة والثراء العريض » .

« إن التفسير المادي للتاريخ يحذف هذا الجانب حذفاً باتاً من تفسيره لأطوار الأمم وأحداث التاريخ ، ذلك أن وجهته ابتداء هي استبعاد العنصر الأخلاقي من الحياة ، واستبعاد القاعدة الاعتقادية التي يقوم عليها ، ولكن هذا التفسير يضطر إلى مماحكات مضحكة في تفسير أحداث وأطوار في حياة البشرية لا سبيل إلى تفسيرها إلا على أساس القاعدة الاعتقادية » .

« والتفسير الإسلامي بشموله وجدّيته

وصدقه وواقعيته ، لا يغفل أثر العناصر المادية – التي يجعلها التفسير المادي هي كل شيء – ولكنه يعطيها مكانها الذي تستحقه في رقعة الحياة العريضة ، ويبرز العناصر الفعالة الأخرى التي لا ينكرها إلا أصحاب العناد الصفيق لواقعيات الوجود .. يبرز قدر الله من وراء كل شيء ، ويبرز التغير الداخلي في الضمائر والمشاعر والعقائد والتصورات ، ويبرز السلوك الواقعي والعنصر الأخلاقي ، ولا يغفل عاملاً واحداً من العوامل التي تجري بها سنة الله في الحياة »[(٥)] .

إن سيد يؤكد في هذا العرض جملة أمور عن التفسير الإسلامي للتاريخ ، وهو يقوم بتنفيذ هذا (التفسير) في تعامله مع الآية المذكورة : ناموسية الحركة التاريخية ، المساحة الكبيرة التي تحتلها القيم الخلقية في الصيرورة التاريخية ، انكماش التفسير المادي للتاريخ برفضه هذه القيم ، والقاعدة الاعتقادية التي تقوم عليها هذه القيم ، واضطـــراره – أحيانــــاً – إلى اعتماد « المماحكات المضحكة » في تـــفسير أحداث وأطوار في تاريخ البشرية لا سبيل إلى تفسيرها إلا على أساس القاعدة الاعتقادية .. شمولية التفسير الإسلامي – بالتالي – وصدقه وواقعيته . فهناك اعتراف بالعناصر المادية ضمن المساحة التي تشغلها فعلاً في صياغة الواقعة التاريخية ، وهناك – أيضاً – سائر العناصر الفعالة الأخرى التي ليس إنكارها من العلم في شيء : قدر الله ، التغير الداخلي في الضمائر والمشاعر والعقائد والتصورات ، السلوك الواقعي والعنصر الأخلاقي .

إنها جميعاً تصنع التاريخ ، وبدون اعتمادها جميعاً لا يمكن تفسير التاريخ ، تلك هي شمولية الرؤية الإسلامية وجديتها وصدقها وواقعيتها .

إن سيد ما إن تتهيأ له الفرصة لتقديم عرض نقدي مقارن بين تفسير الإسلام وتفاسير الوضّاعين ، وبخاصة طبقة الماديين منهم ، إلّا انتهزها لكي يبيّن المدى الواسع في القدرة على الاستشراف بالنسبة للموقف الإسلامي والحفر الضيّقة التي تختنق فيها الرؤى والتفاسير الوضعية .

* * *

وعبر (الظلال) ذي الثلاثين جزءً نستطيع أن نضع أيدينا على مساحات واسعة مما يمس التفسير الإسلامي للتاريخ من قريب أو بعيد ، بشكل مباشر أو غير مباشر ، فما ثم من مسألة لها علاقة بالموضوع إلا ونجد سيّد يقول كلمته فيها من خلال تفسيره لهذا المقطع أو ذاك ، ولهذه الآية أو تلك ، ومن خلال مقدماته **التحليلية الخصبة لسور القرآن وبخاصة تلك** التي تحدثت عن وقائع تاريخية مما شهده عصر الرسالة .

إن سيد يحدثنا عن القدر والحرية ، عن

البعد الغيبي ، عن دور الإنسان في صياغة الحدث التاريخي ، عن تركيب الإنسان ومزاياه ومثالبه ، عن الفردية والجماعية ، عن تهيئة العالم لاستقبال الإنسان .. عن خلق آدم وشروط الخلق ، والغاية النهائية منه ، عن استخلاف الإنسان في الأرض وطبيعة الدور الذي يتحتم أن ينفذه فيها ، عن تسخير العالم والطبيعة والأشياء لمهمة الإنسان ، عن الصراع الذي يلفّ الجزئيات والذرات والمخلوقات والأجرام فيحركها ويدفع بها إلى الأمام ، عن الشروط التي تمكن التجربة التاريخية من الديمومة والتواصل ، ونقائضها التي تقودها إلى التفكك والانهيار ، عن التغيير الذاتي الذي هو مفتاح الحركة التاريخية والذي يتحقق بالصيغ التي تختلف كلية عن صيغ التفاسير الوضعية وعلى رأسها المادية التاريخية .

وغير هذه الخطوط العريضة ، مسائل (فرعية) أخرى كثيرة يغرسها سيّد في (الظلال) لكي ترفد التصوّر الشامل للتفسير الإسلامي للتاريخ .

يمكن القول – بشكل عام :– إن نقاط الارتكاز التي يمكن وضع اليد عليها بحثاً عن النسيج التفسيري التاريخي في (الظلال) هي تلك السور التي تنزلت مساحات واسعة منها لكي تتحدث عن هذه المعركة أو تلك من معارك عصر الرسالة فتغطي جانباً من مجرياتها ، وتلامس أحداثها ، وتعلّق على وقائعها لكي تمنح الجماعة الإسلامية خبرات حية مستمدة من صميم التجربة التي يصنعونها ويعيشونها .

وهذه السور هي وَفق التسلسل التاريخي للأحداث التي تعاملت معها : الأنفال (عن معركة بدر) ، آل عمران (عن معركة أحد) ، الحشر (عن معركة بني النضير) ، الأحزاب (عن معركة الخندق) ، الفتح (عن صلح الحديبية) ، والتوبة (عن معركة تبوك) .

طبعاً ، إن هناك قطعاً أخرى عن أحداث السيرة وقائعها منبثة في ثنايا القرآن ، ولكننا نشير هنا إلى المساحات الأوسع فحسب .

* * *

في تفسيره لسورة الأنفال ، باعتبارها أول معركة حاسمة بين الإيمان والكفر ، يقف سيد طويلاً لطرح وتحليل نظرية الجهاد الإسلامي فيخصص لها أربعاً وثلاثين صفحة شكلت فيما بعد موضوعاً مستقلاً في كتاب (المعالم) ، وقد اقتبس خلالها قطعة واسعة من كتاب أبي الأعلى المودودي (الجهاد في سبيل الله) ، كما أنه اعتمد في البداية على ذلك التلخيص الذي قدمه الإمام ابن القيم عن سياق الجهاد في الإسلام في (زاد المعاد) .

ويكاد يكون هذا التحليل للجهاد أدق تحليل لذلك المبدأ الإسلامي الخطير ، وأكثرها نفاذاً ، وأشملها رؤية ، وأقدرها

على استكناه الروح الحقيقية التي تسري في نسيج هذه الفاعلية ودمهـا وعصبها وشرايينها ، مستمدة من الرؤية القرآنية ومعطيات السيرة ، بعيداً عن الإسقاطات الخاطئة المضللة التي ألحقت بالجهاد فيما بعد مكراً أو جهلاً ...

والجهاد ، على ذلك ، واحداً من المفاتيح الكبيرة التي (تفسّر) الكثير من وقائع التاريخ ، وتلقي الضوء على معطياته وهي تنمو وتتطور ، أو تنكمش وتضمحل وتزول ... ليس تاريخ الرسالة وحدها ، ولا تاريخ عصر الراشدين وحده ، ولكنه كل تاريخ تكون فيه مواجهة بين الإسلام والخصوم .

ولن يتسع المجال هنا بطبيعة الحال لاستعراض ، أو حتى لتلخيص هذا المنظور المتماسك لمفهوم الجهاد ويكفي أن نحيل القارىء إليه[٦] .

يمضي سيّد بعد ذلك لكي يستعرض وقائع معركة بدر وملابساتها من أجل تهيئة الأرضية التي سيقيم عليها تفسيره للمعطيات القرآنية عن هذا الحدث الحاسم (وسنرجع إلى ذلك مرة أخرى لدى الحديث عن معطيات سيد كباحث في التاريخ الإسلامي) . ثم يختم استعراضه ذاك بقوله : « في هذه الغزوة التي أجملنا عرضنها بقدر المستطاع ، نزلت سورة الأنفال ، نزلت تعرض وقائع الغزوة الظاهرة ، وتعرض وراءها فعل القدرة المدبرة ، وتكشف عن قدر الله وتدبيره في وقائع الغزوة ، وفيما وراءها من خط سير التاريخ البشري كله .. »[٧] .

وكعادته عبر منهجه التفسيري ذي الرؤية الشمولية يقدم الرجل عرضاً للخطوط الرئيسية للسورة ثم يختتم العرض بقوله : « لقد كانت هذه الغزوة هي أول وقعة كبيرة لقي فيها المسلمون أعداءهم من المشركين ، فهزموهم تلك الهزيمة الكبيرة ؛ ولكن المسلمين لم يكونوا قد خرجوا لهذه الغاية ، لقد كانوا إنما خرجوا ليأخذوا الطريق على قافلة قريش الذين أخرجوا المهاجرين من ديارهم وأموالهم ، فأراد الله للعصبة المسلمة غير ما أرادت لنفسها من الغنيمة ؛ أراد الله لها أن تنفلت منها القافلة وأن تلقى عدوها من عتاة قريش الذين جمدوا الدعوة في مكة ، ومكروا مكرهم لقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ما بلغوا بأصحابه الذين تابعوه على الهدى غاية التعذيب والتنكيل والأذى . لقد أراد الله سبحانه أن تكون هذه الوقعة فرقاناً بين الحق والباطل ، وفرقاناً في خط سير التاريخ الإسلامي ، ومن ثم فرقاناً في خط سير التاريخ الإنساني ، وأراد أن يظهر فيها الآماد البعيدة بين تدبير البشر لأنفسهم فيما يحسبونه الخير لهم ، وتدبير رب البشر لهم ولو كرهوه في أول الأمر . كما أراد أن تتعلم العصبة المؤمنة عوامل النصر وعوامل الهزيمة

وتتلقاها مباشرة من يد ربها ووليها وهي في ميدان المعركة وأمام مشاهدها .

« وتضمنت السورة التوجيهات الموحية إلى هذه المعاني الكبيرة .. مصوغة في أسلوب التوجيه المربّي الذي ينشىء التصور الاعتقادي ويجعله هو المحرك الأول والأكبر في النشاط الإنساني ؛ وهذه سمة المنهج القرآني في عرض الأحداث وتوجيهها .. واستطرد السياق أحياناً إلى صور من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وحياة أصحابه في مكة ، وهم قلة مستضعفون في الأرض ، يخافون أن يتخطفهم الناس . ذلك ليذكروا فضل الله عليهم في ساعة النصر ، ويعلموا أنهم إنما سينصرون بنصر الله وبهذا الدين الذي آثروه على المال والحياة وإلى صور من حياة المشركين قبل هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعدها ، وإلى أمثلة من مصائر الكافرين من قبل **كدأب آل فرعون والذين من قبلهم** لتقرير سنة الله التي لا تتخلف في الانتصار لأوليائه والتدمير على أعدائه »(٨) .

فهاهنا نضع أيدينا على بعض الخيوط التي تسهم في نسيج التفسير الإسلامي للتاريخ : رؤية الله سبحانه ورؤية الإنسان ، فعل الله سبحانه في التاريخ وفعل الإنسان ، عوامل النصر وعوامل الهزيمة ، العقيدة كمحرك للواقعة التاريخية ، مصائر المؤمنين ومصائر الكافرين في العالم ، القوى المنظورة والقوى الغيبية في صياغة التاريخ ، السنن الإلهية التي لا تتغير ولا تتبدل كلما اجتمعت الأسباب .

فمن خلال هذه المعركة الفاصلة التي لم تتعد الساعات ، أراد القرآن الكريم أن يعلم الجماعة المؤمنة الكثيرَ من مبادىء الحركة التاريخية وقوانينها ؛ لكي يعرفوا كيف يسوقونها – بإرادة الله – صوب الهدى المرتجى ؛ ولكي يكونوا أكثر قدرة على تغيير خرائط العالم وإعادة صياغته من جديد كيلا تكون فتنة ويكون الدين لله .

وشتان بين جماعة تعرف مبادىء وقوانين الحركة التاريخية ، وتتوافق معها ، وتبني عليها ، وتختزل الوقت والطاقة وصولاً إلى الهدف ، وبين جماعة أخرى تجهل هذه المبادىء فترتطم بها ، ولا تستفيد من عطائها ، فتطيل على نفسها الطريق ، وتستنفد من طاقتها ووقتها شيئاً أكبر بكثير من الحجم المطلوب ، وقد لا تصل إلى هدفها أبداً .

إن الماركسيين يصرّون – خطأ واستكباراً – على أنهم هم الذين اكتشفوا قوانين الحركة التاريخية ، فسعوا إلى استغلالها لحسابهم من أجل التعجيل والتسريع بتحقيق أهدافهم . لكننا نجد هنا ما يضرب هذه المقولة الخاطئة ، ويبيّن للناس كيف أراد القرآن الكريم أن يمنحهم وعياً أعمق بهذه القوانين ليمكنهم من تنفيذ برامجهم وتثبيت وجودهم العقيدي في العالم .

إن سيد ، عبر تفسيره لسورة الأنفال يقفنا أمام حشد من تلك القوانين :

١ - الأسباب وحدها لا تنشيء النتائج ، إنما هنالك ما يفوقها فاعلية ، بل ما يحيط بها ويمنحها القدرة على العمل : إنه قدر الله .

والاتكال على الله والتسليم بقدره لا يمنع - مطلقاً - اتخاذ الأسباب ؛ فإنهما متكاملان متناغمان متواصلان ، وليسا - كما يتصور البعض متعارضين - متقاطعين ومتضادين .

والقوانين الطبيعية لا تملك حتميتها المستقلة ، المنظورة ، فيما ينفى قدر الله وغيبه ، فإن التحليل العلمي نفسه يقود إلى تأكيد هذا الغيب في صميم الطبيعة ، وفي تركيب قوانينها العاملة . وإن تجاوز الاستسلام للأسباب الظاهرة هو الفعل التاريخي والعقيدي الوحيد الذي يحرر الإنسان ويمكنه ، في الوقت نفسه ، من صياغة وجوده ومصيره بما يشبه القفزات ، إنه ليس ثمة (عبودية) أبداً لغير الله : لا للأسباب الحتمية ولا لإرادة الطبيعة ولا لغيرها من المسميات .

وذلك هو ملمح أساسي أصيل يفرق بين التفسير الإسلامي للتاريخ وبين غيره من تفاسير الكهنة والوضّاعين . ولنتابع بعض التفاصيل مما يريد سيّد أن يقوله : « ليس الاتكال على الله وحده بمانع من اتخاذ الأسباب . فالمؤمن يتخذ الأسباب من باب الإيمان بالله وطاعته فيما أمر به من اتّخاذها ، ولكنه لا يجعل الأسباب هي التي تنشيء النتائج ، فيتكل عليها ؛ إن الذي ينشيء النتائج - كما ينشيء الأسباب - هو قدر الله ، ولا علاقة بين السبب والنتيجة في شعور المؤمن : اتخاذ السبب عبادة بالطاعة ، وتحقق النتيجة قدر من الله مستقل عن السبب لا يقدر عليه إلّا الله ؛ وبذلك يتحرر شعور المؤمن من التعبد للأسباب والتعلق بها ، وفي الوقت ذاته هو يستوفيها بقدر طاقته لينال ثواب طاعة الله على استيفائها .

« ولقد ظلت الجاهلية (العلمية !) الحديثة تلح فيما تسميه (حتمية القوانين الطبيعية) ؛ وذلك لتنفي (قدر الله)، وتنفي (غيب الله) حتى وقفت في النهاية عن طريق وسائلها وتجاربها ذاتها أمامَ غيب الله وقدر الله وقفة العاجز عن التنبؤ الحتمي ، ولجأت إلى نظرية (الاحتمال) في عالم المادة ؛ فكل ما كان حتمياً صار احتمالياً ، وبقى الغيب سرّاً مختوماً ، وبقي قدر الله هو الحقيقة الوحيدة المستيقنة ، وبقي قول الله سبحانه ﴿ **لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا** ﴾ هو القانون الحتمي الوحيد الذي يتحدّث بصدق عن طلاقة المشيئة الإلهية من وراء القوانين الكونية التي يدبر الله بها هذا الكون بقدره النافذ الطليق .



« .. هذه هي النقلة الضخمة التي ينقلها الاعتقاد الإسلامي للقلب البشري وللعقل البشري أيضاً ـ النقلة التي تخبطت الجاهلية الحديثة ثلاث قرون لتصل إلى أولى مراحلها من الناحية العقلية ، ولم تصل إلى شيء منها في الناحية الشعورية ، وما يترتب عليها من نتائج عملية خطيرة في التعامل مع قدر الله ، والتعامل مع الأسباب والقوى الظاهرية ؛ إنها نقلة التحرر العقلي ، والتحرر الشعوري ، والتحرر السياسي ، والتحرر الاجتماعي ، والتحرر الأخلاقي ، إلى آخر أشكال التحرر وأوضاعه وما يمكن أن يتحرر (الإنسان) أصلاً إذا بقي عبداً للأسباب (الحتمية) وما وراءها من عبوديته لإرادة الناس أو عبوديته لإرادة (الطبيعة) ، فكل (حتمية) غير إرادة الله وقدره هي قاعدة العبودية لغير الله وقدره .. والتصور الاعتقادي في الإسلام كل متكامل ، ثم هو بدوره كل متكامل مع الصورة الواقعية التي يريدها هذا الدين لحياة الناس »(٩) .

٢ – أن النتائج التاريخية لا تأتي بالتمني ، ولكن بالجهد والجهاد وبالمعاناة في عالم الواقع وفي ميدان القتال .

وأن النصر ليس بالعدد ولا بالعدة وحدهما ، ولكنه بمقدار الاتصال بالله والاستمداد من قوته .

وأنه ليس كل ما يريده الناس خيراً لأنفسهم ، فهناك من وراء رؤية الإنسان المحدودة ، رؤية شاملة مطلقة قد تختار لهم ما لا يشتهون ولكنها تسوقهم إلى المصائر التي يتمنون ﴿ **فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيرا** ﴾(١٠) .

« لقد أراد الله – لمعركة بدر – أن تكون ملحمة لا غنيمة (كما تمنى المسلمون قبل وقوعها) وأن تكون موقعة بين الحق والباطل ، ليحق الحق ويثبته ويبطل الباطل ويزهقه ، وأراد أن يقطع دابر الكافرين .. ويمكن للعصبة المسلمة التي تعيش بمنهج الله ، وتنطلق به لتقرير ألوهية الله في الأرض وتحطيم طاغوت الطواغيت ، وأراد أن يكون هذا التمكين عن استحقاق لا عن جزاف ، وبالجهد والجهاد ، وبتكاليف الجهاد ومعاناته في عالم الواقع وفي ميدان القتال .

« نعم. لقد أراد الله للعصبة المسلمة أن تصبح أمة ، وأن تصبح دولة ، وأن يصبح لها قوّة وسلطان . وأراد لها أن تقيس قوتها الحقيقية إلى قوة أعدائها فترجح ببعض قوتها على قوة أعدائها ! وأن تعلم أن النصر ليس بالعدد وليس بالعُدة ، وليس بالمال والخيل والزاد ، إنما هو بمقدار اتصال القلوب بقوة الله التي لا تقف لها قوة العبادة وأن يكون هذا كله عن تجربة واقعية ، لا عن مجرد تصور واعتقاد قلبي ..

« فأين ما أرادته العصبة المسلمة لنفسها

مما أراده الله لها ؛ لقد كانت تمضي وكانت لهم قافلة أبي سفيان – قصة غنيمة ، قصة قوم أغاروا على قافلة فغنموها ؛ فأما بدر فقد مضت في التاريخ كله قصة عقيدة ، قصة نصر حاسم وفرقان بين الحقّ والباطل . قصة انتصار الحق على أعدائه المدجّجين بالسلاح المزودين بكل زاد ، الحق في قلة من العدد ، وضعف في الزاد والراحلة ، قصة انتصار القلوب حين تتصل بالله ، وحين تتخلص من ضعفها الذاتي ؛ بل قصة انتصار حفنة من القلوب من بينها الكارهون للقتال ! ولكنها ببقيتها الثابتة المستعلية على الواقع المادى ، وبيقينها في حقيقة القوى وصحة موازينها ، قلبت ميزان الظاهر فإذا الحق راجح غالب .. »[11] .

٣ – أن الإنسان المؤمن ليس وحده في الساحة ، فهنالك قوى أخرى قد تكون منظورة حيناً ، غير مرئية حيناً آخر ، تبعث بها إرادة الله سبحانه لكي تعين الجماعة المؤمنة على تحقيق النصر والاقتراب من الأهداف .

وإن مقولة فاعلية وسائل الإنتاج ، والقدرات اللامحدودة للقوى المادية ، ليس سوى خرافة تنبثق عن رؤية نسبية محدودة قاصرة لما يجرى في ساحة الكون والعالم والحياة **﴿ وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾**[12] .

إن المعركة كلها تدار بأمر الله ومشيئته ، وتدبيره وقدره ، وتسير بجند الله وتوجيهه ؛ إن الله لم يترك العصبة المسلمة وحدها في ذلك اليوم ، وهي قلة والأعداء كثرة؛ وإن أمر هذه العصبة وأمر هذا الدين قد شارك فيه الملأ الأعلى مشاركة فعلية على النحو الذي يصفه الله – سبحانه – في كلماته ..

« لقد استجاب لهم ربهم وهم يستغيثون ، وأنبأهم أنه ممدهم بألف من الملائكة مردفين .. لقد كان حسب المسلمين أن يبذلوا ما في طوقهم فلا يستبقوا منه بقية ، وأن يغالبوا الهزة الأولى التي أصابت بعضهم في مواجهة الخطر الواقعي وأن يمضوا في طاعة أمر الله واثقين بنصر الله ، كان حسبهم هذا لينتهي دورهم ويجيء دور القدرة التي تصرفهم وتدبرهم .. وأنه لحسب العصبة أن تشعر أن جند الله معها لتطمئن قلوبها وتثبت في المعركة ، ثم يجيء النصر من عند الله وحده .. »[13] .

٤ – أنه ليس من قبيل الصدف والفلتات أن ينصر الله العصبة المؤمنة ، وأن يسلط على أعدائها الرعب وينتهي بها إلى الهزيمة ، فتلك هي سنة الحياة ، وذلك هو واحد من أشد قوانين التاريخ ديمومة وثباتا . وإنه بمجرد أن نستعرض مسيرة الصراع بين الأنبياء عليهم السلام وأصحابهم ، وبين خصومهم ومعارضيهم تتبين لنا ناموسية

الحركة التاريخية التي تؤول إلى انتصار الإيمان على الكفر .

« إنها ليست فلتة عارضة ، ولا مصادفة عابرة ، أن ينصر الله العصبة المسلمة ، وأن يسلط على أعدائها الرعب والملائكة مع العصبة المؤمنة ، إنما ذلك لأنهم شاقوا الله ورسوله ، فاتخذوا لهم شقاً غير شق الله ورسوله وصفاً غير صف الله ورسوله ، ووقفوا موقف الخُلْف والمشاقة هذا ، يصدّون عن سبيل الله ويحولون دون منهج الله للحياة ».

« قاعدة وسنة ، لا فلتة ولا مصادفة ؛ قاعدة وسنة أنه حيثما انطلقت العصبة المسلمة في الأرض لتقرير ألوهية الله وحده ، وإقامة منهج الله وحده ، ثم وقف منها عدوّ لها موقف المشاقة لله ورسوله ، كان التثبيت والنصر للعصبة المسلمة ، وكان الرعب والهزيمة للذين يشاقّون الله ورسوله ، ما استقامت العصبة المسلمة على الطريق ، واطمأنت إلى ربها وتوكلت عليه وحده وهي تقطع الطريق ... » [(١٤)] .

« إن الله سبحانه لا يكل الناس إلى فلتات عابرة ولا إلى جزاف لا ضابط له ، إنما هي سنته يُمضي بها قدره . وما أصاب المشركين في يوم بدر هو ما يصيب المشركين في كل وقت وقد أصاب آل فرعون والذين من قبلهم ...» [(١٥)] .

٥ – والإنسان في التصور الإسلامي للتاريخ عنصر إيجابي في صياغة المصير ، وهو يملك في أية لحظة القدرة على التغيير ، فهو – من ثَم – ليس مجرد أداة لما تسميه المذاهب الوضعية (الحتميات التاريخية) تفعل به ما تشاء ؛ إن الإنسان أقدر وأكرم من هذا بكثير .

وفي تفسيره للآية ﴿ **ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾ [(١٦)] ، يقول سيّد : « إنه من جانب ، يقرر عدل الله في معاملة العباد ، فلا يسلبهم نعمة وهبهم إياها إلّا بعد أن يغيروا نواياهم ، ويبدلوا سلوكهم ، ويقلبوا أوضاعهم ، ويستحقوا أن يغير ما بهم مما أعطاهم إياه للابتلاء والاختبار من النعمة التي لم يقدروها ولم يشكروها . وفي الجانب الآخر يكرم هذا المخلوق الإنساني أكبر تكريم ، حين يجعل قدر الله به ينفذ ويجري عن طريق حركة هذا الإنسان وعمله ، ويجعل التغيير القدري في حياة الناس مبنياً على التغيير الواقعي في قلوبهم ونواياهم ، وسلوكهم وعملهم وأوضاعهم التي يختارونها لأنفسهم . ومن الجانب الثالث يلقي تبعة عظيمة – تقابل التكريم العظيم – على هذا الكائن . فهو يملك أن يستبقي نعمة الله عليه ويملك أن يزاد عليها إذا هو عرف فشكر ، كما يملك أن يزيل هذه النعمة عنه إذا هو أنكر فبطر وانحرفت نواياه فانحرفت خطاه .

« وهذه الحقيقة الكبيرة تمثل جانباً من

جوانب (التصور الإسلامي لحقيقة الإنسان وعلاقة قدر الله به في هذا الوجود ، وعلاقته هو بهذا الكون وما يجري فيه . ومن هذا الجانب يتبين تقدير هذا الكائن في ميزان الله ، وتكريمه بهذا التقدير ، كما تتبين فاعلية الإنسان في مصير نفسه وفي مصير الأحداث من حوله ، فيبدو عنصراً إيجابياً في صياغة هذا المصير – بإذن الله وقدره الذي يجري من خلال حركته وعمله ونيته وسلوكه ، وتنتفي عنه تلك السلبية الذليلة التي تعرضها عليه المذاهب المادية التي تصوره عنصراً سلبياً إزاء الحتميات الجبارة : حتمية الاقتصاد ، وحتمية التاريخ ، وحتمية التطور .. إلى آخر الحتميات التي ليس للكائن الإنساني إزاءها حول ولا قوة ، ولا يملك إلّا الخضوع المطلق لما تعرضه عليه وهو ضائع خانع مذلول . كذلك تصور هذه الحقيقة ذلك التلازم بين العمل والجزاء في حياة هذا الكائن ونشاطه ، وتصور عدل الله المطلق في جعل هذا التلازم سنة من سننه يجري بها قدره ولا يظلم فيها عبد من عبيده .. »[١٧] .

٦ – في التفاسير الوضعية للتاريخ كان الشعار في معظم الأحيان هو (الغاية تبرر الواسطة) ، وكان بمقدور البطل في التفسير المثالي لهيجل أن يفعل ما يشاء ، وأن يتجاوز القيم الخلقية ويسحق الزهرات البيضاء ؛ لأنه لا يفعل أكثر من الاستجابة لنداء العقل الكلّي من أجل التقدم . وما كانت النازية والفاشية في نهاية الأمر إلّا ثمرة مُرة لهذا التصور المخطوء ، ولقد وجدنا في فلسفة هيجل الكثير من المبررات والحجج والأسانيد . وكان بمقدور (الطبقة) في التفسير المادى لماركس وإنجلز أن تفعل ما تشاء : أن تقتل وتستعبد وتسفك الدماء وتسعى في الأرض فساداً ؛ لأنها لا تفعل أكثر من الاستجابة لمنطق التبدل في وسائل الإنتاج وظروفه ، وما كانت الشيوعية في نهاية الأمر إلا ثمرة مُرة لهذا التصور المخطوء ، ولقد وجدت في فلسفة ماركس وإنجلز ونبوءاتهما وحتمياتهما الكثير من الحجج لتنفيذ أبشع الصيغ للمبدأ الماكيافللي الغربي المعروف : (الغاية تبرر الواسطة) .

في التصور الإسلامي نقف إزاء هذا النداء ﴿ **وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين** ﴾[١٨] .

« إن الإسلام يعاهد ليصون عهده ، فإذا خاف الخيانة من غيره نبذ العهد القائم جهره وعلانيته ، ولم يخن ولم يغدر ، ولم يغش ولم يخدع ، وصارح الآخرين بأنه نفض يده من عهده ، فليس بينه وبينهم أمان . وبذلك يرتفع الإسلام بالبشرية إلى آفاق من الشرف والاستقامة والأمن والطمأنينة ... إنه يريد للبشرية أن تعفّ فلا يبيح الغدر في سبيل الغلب ، وهو يكافح لأسمى الغايات وأشرف المقاصد ،

ولا يسمح للغاية الشريفة أن تستخدم الوسيلة الخسيسة .. إن النفس الإنسانية وَحدة لا تتجزأ ، ومتى استحلت لنفسها وسيلة خسيسة فلا يمكن أن تظل محافظة على غاية شريفة ، وليس مسلماً من يبرر الوسيلة بالغاية ، فهذا المبدأ غريب على الحسّ الإسلامي ؛ لأنه لا انفصال في تكوين النفس البشرية وعالمها بين الوسائل والغايات .. »[١٩].

٧ – والقوة المادية ليست الحكم الأول والأخير في مصير أي صراع ، سواء بحسابات الكم أم النوع ، فإن هنالك – في التفسير الإسلامي للتاريخ – قوة تفوقها وتسوقها في الوقت نفسه ، إنها قوة الإيمان ، توهّج الروح واستنارة الفكر ويقين الفؤاد .

إن المنظور الإسلامي يكسر المعادلات التقليدية لتكافؤ القوى ويصنع معادلة من نوع جديد .. معادلة مركبة من عدة درجات لن يستطيع إدراكها والتعامل بمنطوقها إلّا الذين يصنعونها وينفذونها .. لقد كان الفاتحون الروّاد بعض أولئك الذين تيقنتها نفوسهم ، كانوا في معظم الأحيان الأقل عدداً ولكنهم كانوا في معظم الأحيان يخرجون منتصرين . وبدون إدراك هذا البعد في ميدان الصراع لن يكون بمقدورنا أن نفسّر واحدة من أشد الظواهر التاريخية تأثيراً وتألقاً واتساعاً .. الفتح الإسلامي .

بينما في التفاسير الوضعية يبدو الرقم البسيط المجرد هو الحكم الفصل في المصير ، ولهذا كثيراً ما تعجز عن تفسير ظواهر تاريخية كهذه فتلفق لها الأسباب :

﴿ يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال إنْ يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مئة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مئتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين ﴾[٢٠].

« ويقف الفكر ليستعرض القوة التي لا رادّ لها ولا معقب عليها ، قوة الله القوي العزيز ، وأمامها تلك القوة الضئيلة العاجزة الهزيلة ، التي تتصدى لكتائب الله – فإذا الفرق شاسعٌ والبون بعيد ، وإذا هي معركة مضمونة العاقبة مقررة المصير » .

« فأما تعليل هذا التفاوت فهو ، ﴿ بأنهم قوم لا يفقهون ﴾ .. فما صلة الفقه بالغلب في ظاهر الأمر ؛ إنها صلة حقيقية قوية . إن الفئة المؤمنة إنما تمتاز بأنها تعرف طريقها وتفقه منهجها وتدرك حقيقة وجودها وغايتها . إنها تفقه حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية فتفقه أن الألوهية لابدّ أن تتفرد وتستعلي ، وأن العبودية يجب أن تكون لله وحده بلا شريك . وتفقه أنها هي – الأمة المسلمة – المهتدية بهدي الله ، المنطلقة في الأرض بإذن الله لإخراج الناس

من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، وأنها هي المستخلفة عن الله في الأرض ، الممكنة فيها لا لتستعلي هي وتستمتع ولكن لتعلي كلمة الله وتجاهد في سبيله ولتعمر الأرض بالحق وتحكم بين الناس بالقسط .. وكل ذلك فقه يسكب في قلوب العصبة المسلمة النور والثقة والقوة واليقين ، ويدفع بها إلى الجهاد في سبيل الله في قوة وطمأنينة للعاقبة تضاعف القوة ، بينما أعداؤها (قوم لا يفقهون) ، قلوبهم مغلقة ، وبصائرهم مطموسة ، وقوتهم كليلة عاجزة مهما تكن متفوقة ظاهرة ، إنها قوة منقطعة معزولة عن الأصل الكبير .

« وهذه النسبة ، واحد لعشرة ، هي الأصل في ميزان القوى بين المؤمنين الذين يفقهون والكافرين الذين لا يفقهون . وحتى في أضعف حالات المسلمين الصابرين فإن هذه النسبة هي واحدة لاثنين »[(٢١)] .

٨ – أن آصرة التجمع والقاعدة التي ينطلق منها المجتمع الإسلامي ويقوم عليها هي العقيدة ، ليست علاقات الدم ، ولا علاقات الأرض ، ولا علاقات الجنس ، ولا علاقات التاريخ ، ولا علاقات اللغة ، ولا علاقات الاقتصاد ، ولا العلاقات الطبقية ؛ ليست هي القرابة ولا العرقية ولا المصالح الاقتصادية ؛ إنما هي علاقة العقيدة أولاً وأخيراً .

« ولقد كان الإسلام يستهدف من خلال ذلك إبراز (إنسانية الإنسان) ، وتقويتها وتمكينها وإعلاءها على جميع الجوانب الأخرى فى الكائن الإنساني .. إن هذا الكائن يشترك مع الكائنات الحيوانية – بل الكائنات المادية – في صفات توهم أصحاب (الجهالة العلمية) مرة بأنه حيوان كسائر الحيوان ، ومرة بأنه مادة كسائر المواد ؛ ولكن الإنسان مع اشتراكه في هذه (الصفات) مع الحيوان ومع المادة له (خصائص) تميزه وتفرده وتجعل منه كائناً فريداً ، كما اضطر أصحاب (الجهالة العلمية) أخيراً أن يعترفوا والحقائق الواقعية تلوي أعناقهم ليّاً فيضطرون لهذا الاعتراف في غير إخلاص ولا صراحة .

« والإسلام – بمنهجه الرباني – يعمد إلى هذه الخصائص التي تميز (الإنسان) وتفرده بين الخلائق ، فيبرزها وينميها ويعليها . وهو حين يجعل آصرة العقيدة هي قاعدة التجمع العضوي الحركي التي يقيم على أساسها وجود الأمة المسلمة ، إنما يمضي على خطته تلك ، فالعقيدة تتعلق بأعلى ما في (الإنسان من « خصائص ») .

« إنه لا يجعل هذه الأخيرة هي النسب ، ولا اللغة ، ولا الأرض ، ولا الجنس ، ولا اللون ، ولا المصالح ، ولا المصير الأرضي المشترك ، فهذه كلها

أواصر يشترك فيها الحيوان مع الإنسان ، وهي أشبه شيء بأواصر القطيع . أما العقيدة التي تفسر للإنسان وجوده ، ووجود هذا الكون من حوله ، ومصيره ومصير الكون من حوله ، وتردّه إلى ما هو أعلى من هذه المادة وأكبر وأسبق وأبقى ، فهي أمرٌ آخر يتعلق بروحه وإدراكه المميِّز له من سائر الخلائق ، والذي يقرر (إنسانيته) في أعلى مراتبها حيث يخلف وراءه سائر الخلائق » .

« ثم إن هذه الأخيرة – آصرة العقيدة والتصور والفكرة والمنهج – هي آصرة حرة ، يملك الفرد الإنساني اختيارها بمحض إرادته الواعية . فأما أواصر القطيع تلك فهي مفروضة عليه فرضاً ، لم يخترها ولا حيلة له كذلك فيها . إنه لا يملك تغيير نسبه الذي نماه ، ولا تغيير الجنس الذي يتسلسل منه ، ولا تغيير اللون الذي ولد به فهذه كلها أمورٌ قد تقررت في حياته قبل أن يولد ، لم يكن له فيها اختيار . كذلك مولده في أراضي بعينها ، ونطقه بلغة بعينها بحكم هذا المولد ، وارتباطه بمصالح مادية معينة ومصير أراض معين – مادامت هذه هي أواصر تجمعه مع غيره – كلها مسائل عسيرة التغيير ، ومجال (الإرادة الحرة) فيها محدود . ومن أجل هذا كله لا يجعلها الإسلام هي آصرة التجمع الإنساني ؛ فأما العقيدة والتصور والفكرة والمنهج ، فهي مفتوحة دائماً للاختيار الإنساني ، ويملك في كل لحظة أن يعلن فيها اختياره ، وأن يقرر التجمع الذي يريد أن ينتمي إليه بكامل حريته ، فلا يقيده في هذه الحالة قيد من لونه أو لغته أو جنسه أو نسبه أو الأرض التي ولد فيها والمصالح المادية التي تتحول بتحول التجمع الذي يريده ويختاره ، وهنا كرامة الإنسان في التصور الإسلامي .

« ولقد كان من النتائج الواقعية الباهرة للمنهج الإسلامي في هذه القضية :– أن أصبح المجتمع المسلم مجتمعاً مفتوحاً لجميع الأجناس والأقوام والألوان واللغات وأن صبت في بوتقة المجتمع الإسلامي خصائص الأجناس البشرية وكفاياتها وانصهرت في هذه البوتقة وتمازجت وأنشأت مركباً عضوياً فائقاً في فترة تعد نسبياً قصيرة ، وصنعت هذه الكتلة العجيبة المتجانسة المتناسقة حضارة رائعة ضخمة تحوي خلاصة الطاقة البشرية في زمانها مجتمعة ، على بعد المسافات وبطء طرق الاتصال في ذلك الزمان .

« .. لقد اجتمع العربي والفارسي والشامي والمصري والمغربي والتركي والصيني والهندي والروماني والإغريقي والأندونيسي والإغريقي .. إلى آخر الأقوام والأجناس اجتمعوا على قدم المساواة وبآصرة الحب ، وبشعور التطلع إلى وجهة واحدة ، فبذلوا جميعاً أقصى كفاياتهم ، وأبرزوا أعمق خصائص أجناسهم ،

وخصبوا خلاصة تجاربهم الشخصية والقومية والتاريخية في بناء هذا المجتمع الواحد الذي ينتسبون إليه جميعاً على قدم المساواة ، وتجمع فيه بينهم آصرة تتعلق بربهم الواحد ، وتبرز فيها إنسانيتهم ، وحدها بلا عائق ، وهذا ما لم يتجمع قط لأي تجمع آخر على مدار التاريخ » .

« لقد كان أشهر تجمع بشري في التاريخ القديم هو تجمع الإمبراطورية الرومانية مثلاً . فقد ضمَّت بالفعل أجناساً متعددة ، ولغات وألواناً وأرضين متعددة ولكن هذا كله لم يقم على آصرة (إنسانية) ولم يتمثل في قيمة عليا كالعقيدة ؛ لقد كان هناك تجمع طبقي على أساس طبقة الأشراف وطبقة العبيد في الإمبراطورية كلها من ناحية ، وتجمع عنصري على أساس سيادة الجنس الروماني - بصفة عامة - وعبودية سائر الأجناس الأخرى . ومن ثم لم يرتفع قط إلى أفق التجمع الإسلامي ، ولم يؤت الثمار التي أتاها التجمع الإسلامي » .

« كذلك قامت في التاريخ الحديث تجمعات أخرى ، تجمع الإمبراطورية البريطانية مثلاً ، ولكنه كان كالتجمع الروماني الذي هو وريثه ، تجمعاً قومياً استغلالياً ، يقوم على أساس سيادة القومية الإنجليزية ، واستغلال المستعمرات التي تضمها الإمبراطورية ؛ ومثله الإمبراطوريات الأوربية كلها : الإمبراطورية الأسبانية والبرتغالية في وقت ما ، والإمبراطورية الفرنسية .

« وأرادت الشيوعية أن تقيم تجمعاً من نوع آخر ، يتخطى حواجز الجنس والقوم والأرض واللغة واللون . ولكنها لم تقمه على قاعدة (إنسانية) عامة .. إنما أقامته على القاعدة (الطبقية) ، فكان هذا التجمع هو الوجه الآخر للتجمع الروماني القديم . هذا تجمع على قاعدة طبقة (الأشراف) ، وذلك تجمع على قاعدة طبقة (البروليتاريا) والعاطفة التي تسوده هي عاطفة الحقد الأسود على سائر الطبقات الأخرى . وما كان لمثل هذا التجمع أن يثمر إلا أسوأ ما في الكائن الإنساني فهو ابتداء قائم على أساس إبراز الصفات الحيوانية وحدها وتنميتها وتمكينها باعتبار أن (المطالب الأساسية) للإنسان هي (الطعام والمسكن والجنس) وباعتبار أن تاريخ الإنسان هو تاريخ البحث عن الطعام .. »(٢٢) .

٩ - والتفسير الإسلامي للتاريخ ، على خلاف سائر التفاسير الوضعية ، يعطي مساحة واسعة للغيب ، بل يجعله قاعدة أساسية من القواعد الكبرى للتصور الإسلامي حتى لقد جعل الإسلامُ الإيمانَ بالغيب مقوماً من مقومات الإيمان لا يتم إلّا به : ﴿ **الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون والذين**

يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾(٢٣).

« إن الإيمان بالغيب نقلة في حياة الإنسان ضخمة ؛ لأن خروجه من دائرة المحسوس الضيقة إلى إدراك أن هناك غيباً مجهولاً يمكن وجوده ويمكن تصوّره ، هو بلا شك نقلة من دائرة الحس الحيواني إلى مجال الإدراك الإنساني ، وإن إغلاق هذا المجال دون الإدراك الإنساني نكسة به إلى الوراء ، وهو ما تحاوله المذاهب المادية الحسّية وتدعوه (تقدمية) .. »(٢٤) .

المجال الفسيح الذي يفتحه الإيمان بالغيب أمام وعي الإنسان إنما هو « فسحة في التصور ، وفسحة في إدراك حقائق هذا الوجود ، وفسحة في الشعور ، وفسحة في الحركة النفسية والفكرية يتيحها التصور الإسلامي للمسلم .. والذين يريدون أن يغلقوا على (الإنسان) هذا المجال ، ومجال عالم الغيب كله ، إنما يريدون أن يغلقوا عالمه على مدى الحس القريب المحدود ، ويريدون بذلك أن يزجوا به في عالم البهائم ، وقد كرمه الله بقوة التصوّر التي يملك بها أن يدرك ما لا تدركه البهائم ، وأن يعيش في بحبوحة من المعرفة وبحبوحة من الشعور ، وأن ينطلق بعقله وقلبه إلى مثل هذا العالم ..

« ماذا عند أدعياء العقلية (العلمية) من علمهم ذاته ، يحتّم عليهم نفي (الغيب) وأبعاده عن دائرة التصوّر والتصديق ؟ ماذا لديهم من علم يوجب عليهم ذلك ، إن علمهم لا يملك أن ينفي وجود حياة من نوع آخر غير الحياة المعروفة في الأرض في أجرام أخرى يختلف تركيب جوّها وتختلف طبيعتها وظروفها عن جو الأرض وظروفها ، فلماذا يجزمون بنفي هذه العوالم وهم لا يملكون دليلاً واحداً على نفي وجودها ؟ لقد نرى حين نناقش هذه القضية أن الغيب الذي ينكرونه هو الحقيقة الوحيدة التي يجزم هذا العلم اليوم بوجودها ، حتى في عالم الشهادة الذي تلمسه الأيدي وتراه العيون »(٢٥) .

« إن العقلية الإسلامية لتجمع بين الاعتقاد بالغيب المكنون الذي لا يعلم مفاتحه إلّا الله ، وبين الاعتقاد بالسنن التي لا تتبدل والتي تمكن معرفة الجوانب اللازمة منها لحياة الإنسان في الأرض ، والتعامل معها على قواعد ثابتة ، فلا يفوت المسلم (العلم) البشري في مجاله ، ولا يفوته كذلك إدراك الحقيقة لواقعة ، وهي أن هنالك غيباً لا يطلع الله عليه أحداً إلّا من شاء بالقدر الذي يشاء .... »(٢٦) .

* * *

ويكاد يكون وقوف سيّد عند معركة (أحد) أطول وقوف عند معركة من معارك عصر الرسالة التى تحدّث عنها كتاب

الله ، على مستوى التفسير التاريخي وليس التاريخ الصرف ، فهو ينشر تفسير الآيات التسع والخمسين المتعلقة بها من سورة آل عمران على مساحة تزيد على المائة والعشرين صفحة . وهو يبدأ كعادته بتقديم الخطوط العريضة للرؤية القرآنية للمعركة ، ويثنّي باستعراض وقائعها التاريخية كما وردت في كتب السيرة ، ثم يلج بعدئذ في التفسير .

إن القرآن الكريم يؤكد في تعامله مع هذه المعركة ، القيم والقوانين التي استخلصها من معركة بدر ، ولكنه هنا يوسعها ويغنيها ويزيد عليها ، باعتبار أن مذاق أحد ليس كمذاق بدر ، وأن معطياتهما التاريخية والعقيدية ليستا سواء .

– في البدء يشير سيّد إلى واحدة من خصائص القرآن المنهجية في التعامل مع التاريخ . إنه لا يستهدف – البتة – العرض المجرد للوقائع والأحداث ، كما كان يفعل – ولايزال – الكثيرُ من المؤرخين ، ولكنه يتجاوز القشرة الخارجية للحدث بحثاً عن المغزى والمعنى ، ويتوغل في نسيج الفعل التاريخي لكي يضع يده على السنن والقوانين التي تشدّ وقائعه وتحركها في الوقت نفسه .

إن القرآن الكريم لا يقدم تأريخاً للأحداث ولكنه يطرح تفسيراً ، وهو لا يقف عند حدودالساحة الظاهرية التي تتحرك على مسرحها الوقائع وتتخلّق الأحداث ، ولكنه يمدّ كشافاته الضوئية إلى السرائر والدخائل ، عمقاً ، وإلى آفاق العالم وآماد الكون امتداداً .. إنه يعتمد نظرة كلية تتجاوز التقطيع والتضييق إلى كل ما من شأنه أن يلعب دوره في صياغة الوقائع والأحداث .

« إن النص القرآني لا يتتبع أحداث المعركة للرواية والعرض ، ولكنه يتتبع دخائل النفوس وخوالج القلوب ، ويتخذ من الأحداث مادة تنبيه وتنوير وتوجيه ، وهو لا يعرض الحوادث عرضاً تاريخياً مسلسلاً بقصد التسجيل ، إنما هو يعرضها للعبرة والتربية واستخلاص القيم الكامنة وراء الحوادث ، ورسم سمات النفوس وتصوير الجو الذي صاحبها ، والسنن الكونية التى تحكمها ، والمبادىء الباقية التي تقرّرها . وبذلك تستحيل الحادثة محوراً أو نقطة ارتكاز لثروة ضخمة من المشاعر والسمات والنتائج والاستدلالات . يبدأ السياق منها ، ثم يستطرد حولها ، ثم يعود إليها ، ثم يجول في أعماق الضمائر وفي أغوار الحياة ، ويكرر هذا مرة بعدمرة ، حتى ينتهي برواية الحادث إلى نهايتها ، وقد ضمّ جناحيه على حفل من المعاني والدلائل والقيم والمبادىء ، لم تكن رواية الحادث إلّا وسيلة إليها ، ونقطة ارتكاز تتجمع حواليها ، وحتى يكون قد تناول ملابسات

الحادث وعقابيله في الضمائر ، فجلاها ونقاها وأراحها في مواضعها فلا تجد النفس منها حيرة ولا قلقا ، ولا تحس فيها لبساً ولا دخلاً .

« وينظر الإنسان في رقعة المعركة ، وما وقع فيها – على سعته وتنوعه – ثم ينظر إلى رقعة التعقيب القرآني ، وما تناوله من جوانب ، فإذا هذه الرقعة أوسع من تلك وأبقى على الزمن ، وألصق بالقلوب ، وأعمق في النفوس ، وأقدر على تلبية حاجات النفس البشرية وحاجات الجماعة الإسلامية ، في كل موقف تتعرض له في هذا المجال على تتابع الأجيال . فهي تتضمن الحقائق الباقية من وراء الأحداث الزائلة والمبادىء المطلقة من وراء الحوادث المفردة ، والقيم الأصيلة من وراء الظواهر العارضة ، والرصيد الصالح للتزوّد بغض النظر عن اعتبارات الزمان والمكان »[(٢٧)] .

١١ – وفي البدء ، يرسم أرضية الحدث التاريخي بما يعمّق حقيقة الحضور الإلهي في التاريخ . إن هذا (الحضور) المؤثر ، الفعال ، صاحب الكلمة الأولى والأخيرة في مجرى الواقعة التاريخية ، لا يؤتى ثماره التربوية والعقيدية في النفس المؤمنة التي يتأكد لديها لحظة بعد لحظة الفعل الإلهي في عالم الواقع ، فحسب ، ولكنه يؤكد – كذلك – حقيقة تفسيرية من أهم حقائق التفسير الإسلامي للتاريخ ؛ ففي التفاسير الوضعية يحضر (العقل الكلّي) خلال تخلّق الأحداث ، أو تحضر العلاقات والظروف الإنتاجية ، أو تحضر التحديات والاستجابات . ولكننا هنا إزاء حضور إلهي شامل ، كامل ، فاعل ، مريد ، وليست كل صيغ الحضور الجزئية الأخرى : فكرية أم مادية أم طبيعية أم نفسية ، سوى وسائل فحسب يستخدمها الحضور الكبير الشامل لتحقيق الفعل وترتيب النتائج وتركيب الوقائع والأحداث .

أما على المستوى التربوي – العقيدي فإن القرآن ينفّذ ما يسمى بإحياء الموقف التاريخي ، وتفجير الدم في أوردته وشرايينه ؛ إنه لا يتعامل معه كما لو كان ظواهر جامدة ، وأحداثاً متيبسة ، قد أخذت صيغها النهائية وتجمدت عليها ، ولكن كما لو كان يتخلق هذه اللحظة أمام القلوب والأبصار .. يتحرك وينمو ويكتسب ملامحه لحظة بلحظة ودقيقة بدقيقة ، وهو بهذه الصيغة (الإحيائية) يجعل التاريخ فعلاً تربوياً مؤثراً ، وأداة حركية للبناء العقيدي على مستوى الذات ومستوى الجماعة ، وليس مجرد عرض أكاديمي أو دراسة جامدة .

وهكذا يلتقي الخطان : الحضور الإلهي والحضور الإنساني في قلب التاريخ ، ومن خلال هذا الحضور يطرح القرآن الكريم تعاليمه وقيمه ودروسه فتستقبلها الأرض

التي عرف زارعها كيف يهيئها للإنبات الغزير .. الجميل .

« .. ﴿ **وإذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون** ﴾ . هكذا يبدأ باستعادة المشهد للمعركة واستحضاره ، وقد كان قريباً من نفوس المخاطبين الأولين بهذا القرآن ومن ذاكرتهم ؛ ولكن ابتداء الحديث على هذا النحو واستحضار المشهد الأول بهذا النصّ ، من شأنه أن يعيد المشهد بكل حرارته وبكل حيويته ، وأن يضيف إليه ما وراء المشهد المنظور — الذي يعرفونه — من حقائق أخرى لا يتضمنها المشهد المنظور ، وأولها حقيقة حضور الله — سبحانه — معهم ، وسمعه وعلمه بكل ما كان وما دار بينهم . وهي الحقيقة التي تحرص التربية القرآنية على استحضارها وتقريرها وتوكيدها وتعميقها في التصور الإسلامي . وهي هى الحقيقة الأساسية الكبيرة التي أقام عليها الإسلام منهجه التربوي .. إن القرآن يتولى استحياء القلوب وتوجيهها وتربيتها بالتعقيب على الأحداث وهي ساخنة ، ويتبين الفرق بين رواية القرآن للأحداث وتوجيهها وبين سائر المصادر التي قد تروي الأحداث بتفصيل أكثر ، ولكنها لا تستهدف القلب البشري والحياة البشرية بالإحياء وبالاستجاشة وبالتربية والتوجيه كما يستهدفها القرآن الكريم بمنهجه القويم »[(٢٨)] .

١٢ — وثمة لمسة منهجية ثالثة : إن القرآن الكريم وهو يحكي عن معركة أُحد ويعقب عليها يذكر المؤمنين بمعركة بدر لكي يقوموا بالموازنة والمقارنة والبحث في الارتباطات بين الأسباب والنتائج .

والجهد التاريخي لن يستكمل شروطه إلّا بالموازنة والمقارنة والتمحيص بين التجارب والأحداث . إن القرآن الكريم يعمق في حسّ المسلم هذه الضرورة المنهجية لكي يقوده إلى جني ثمارها التربوية والعقيدية .. نعم ، ولكنه يضيف إلى خبراته في الوقت نفسه خبرة (تاريخية) لم يكن الفكر البشري قد عرف عنها الكثير .

« ... وقبل أن يمضى (القرآن) في الاستعراض والتعقيب على أحداث معركة (أُحد) التي انتهت بالهزيمة ، يذكرهم بالمعركة التي انتهت بالنصر ، معركة بدر ، لتكون هذه أمام تلك مجالاً للموازنة وتأمل الأسباب والنتائج ، ومعرفة مواطن الضعف ومواطن القوة ، وأسباب النصر وأسباب الهزيمة . ثم — بعد ذلك ليكون اليقين من أن النصر والهزيمة كليهما قدر من أقدار الله ، لحكمة تتحقق من وراء النصر كما تتحقق من وراء الهزيمة سواء ، وأن مرد الأمر في النهاية إلى الله على كلا الحالين وفي جميع الأحوال .. »[(٢٩)] .

١٣ - والناموسية التاريخية، أو القانونية التاريخية - مرة أخرى -: هي واحدة من القواعد الأساسية للتفسير الإسلامي للتاريخ، قالها كتاب الله قبل أن يقول بها أحد، وأكدها في عشرات المواضع يوم أن لم تكن حركة التاريخ في تصور العقل البشري، وأعمال المؤرخين أنفسهم، سوى سلسلة غير مترابطة الحلقات من الحوادث، و حشود من الوقائع لا تدرى فيها الأسباب والنتائج، وصدف وفلتات لا يربطها نظام ولا يحركها قانون ولا تشدّها سنّة.

ويعد المقطع القرآني التالي، الذي هو قمة التصعيد في الحديث عن معركة أُحد، والذي يؤكد على الناموسية التاريخية، واحدة من أشد الإضاءات القرآنية كثافة وامتداداً في حقل التفسير الإسلامي للتاريخ، ولذا يقف عنده سيّد طويلاً مستخلصاً القيم والمؤشرات والتعاليم: **﴿ قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾**[(٣٠)].

« إن القرآن الكريم يرد المسلمين هنا - في معركة أُحد - إلى سنن الله في الأرض يردهم إلى الأصول التي تجري وَفقها الأمور. فهم ليسوا بدعاً في الحياة، فالنواميس التي تحكم الحياة جارية لا تختلف، والأمور لا تمضي جزافاً، إنما هي تتبع هذه النواميس، فإذا هم درسوها وأدركوا مغازيها -: تكشفت لهم الحكمة من وراء الأحداث، وتبينت لهم الأهداف من وراء الوقائع، واطمأنوا إلى ثبات النظام الذي تتبعه الأحداث وإلى وجود الحكمة الكامنة وراء هذا النظام. واستشرفوا خط السير على ضوء ما كان في ماضي الطريق. ولم يعتمدوا على مجرد كونهم مسلمين لينالوا النصر والتمكين، بدون الأخذ بأسباب النصر؛ وفي أولها طاعة الله وطاعة الرسول، والسنن التي يشير إليها السياق هنا، ويوجه أبصارهم إليها هي: عاقبة المكذبين على مدار التاريخ، ومداولة الأيام بين الناس، والابتلاء لتمحيص السرائر، وامتحان قوة الصبر على الشدائد، واستحقاق النصر للصابرين والمحق للمكذبين ».

« .. إن القرآن ليربط ماضي البشرية بحاضرها، وحاضرها بماضيها، فيشير من خلال ذلك كله إلى مستقبلها. وهؤلاء العرب الذين وجه إليهم القول أول مرة لم تكن حياتهم ولم تكن معارفهم، ولم تكن

تجاربهم - قبل الإسلام - لتسمح لهم بمثل هذه النظرة الشاملة لولا هذا الإسلام وكتابه - القرآن - الذي أنشأهم به الله نشأة أخرى وخلق به منهم أمة تقود الدنيا .

« إن النظام القبلي الذي كانوا يعيشون في ظلّه ما كان ليقود تفكيرهم إلى الربط بين سكان الجزيرة ومجريات حياتهم ، فضلاً عن الربط بين سكان هذه الأرض وأحداثها ، فضلاً عن الربط بين الأحداث العالمية والسنن الكونية التى تجري وَفقها الحياة جميعاً . وهي نقلة بعيدة لم تنبع من البيئة ، ولم تنشأ من مقتضيات الحياة في ذلك الزمان ، إنما حملتها إليهم هذه العقيدة ، بل حملتهم إليها ، وارتقت بهم إلى مستواها في ربع قرن من الزمان ، على حين أن غيرهم من معاصريهم لم يرتفعوا إلى هذا الأفق من التفكير الحالي إلا بعد قرون ، ولم يهتدوا إلى ثبات السنن والنواميس الكونية إلّا بعد أجيال وأجيال . فلما اهتدوا إلى ثبات السنن والنواميس نسوا أن معها كذلك طلاقة المشيئة الإلهية ، وأنه إلى الله تصير الأمور . فأما هذه الأمة المختارة فقد استيقنت هذا كله ، واتسع له تصورها ، ووقع في حسّها التوازن بين ثبات السنن وطلاقة المشيئة ، فاستقامت حياتها على التعامل مع سنن الله الثابتة والاطمئنان - بعد هذا - إلى مشيئته الطليقة .. » (٣١) .

١٤ - يخلص سيّد إلى تقرير واحد من الحقائق الأساسية في التفسير الإسلامي للتاريخ ، الحقيقة التي سبق وأن أكدها في تعامله مع سورة الأنفال ، وسوف يعود إلى تأكيدها عبر تعامله مع سور القرآن جميعا ، تلك هي أن فاعلية الله في التاريخ تعمل من خلال الطبيعة حيناً ومن خلال الإنسان حيناً آخر ، تحرك القوى المادية المنظورة حيناً ، وتدفع بالقوى الروحية غير المنظورة حيناً آخر ، تعتمد السنن والنواميس حيناً ، وتخترقها بالمعجزات والخوارق حيناً آخر .. وتبقى إرادة الله قبل هذا كله ، وبعد هذا كله ، هي التي تصنع التاريخ .

« يحرص السياق القرآني على ردّ الأمر كله إلى الله ، كي لا يعلق بتصور المسلم ما يشوب هذه القاعدة الأصيلة : قاعدة ردّ الأمر جملة إلى مشيئة الله الطليقة وإرادته الفاعلة وقدره المباشر ، وتنحية الأسباب والوسائل عن أن تكون هي الفاعلة إنما هي أداة تحركها المشيئة وتحقق بها ما تريده ﴿ **وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم** ﴾ .

« وقد حرص القرآن الكريم على تقرير هذه القاعدة في التصوّر الإسلامي ، وعلى تنقيتها من كل شائبة ، وعلى تنحية الأسباب الظاهرة والوسائل والأدوات عن أن تكون هي الفاعلة ، لتبقى الصلة المباشرة بين العبد والربّ ، بين قلب المؤمن وقدر الله ، بلا حواجز ولا عوائق ولا وسائل ولا وسائط كما هي في عالم الحقيقة بمثل هذه التوجيهات

المكررة في القرآن ، المؤكدة بشتى أساليب التوكيد ، استقرت هذه الحقيقة في أخلاد المسلمين على نحو بديع ، هادىء عميق ، مستنير . عرفوا أن الله هو الفاعل – وحده ، وعرفوا كذلك أنهم مأمورون من قبل الله باتخاذ الوسائل والأسباب ، وبذل الجهد ، والوفاء بالتكاليف ؛ فاستيقنوا الحقيقة ، وأطاعوا الأمر في توازن شعوري وحركي عجيب »[٣٢] .

وفي مقابل هذه الحقيقة تقف حقيقة أخرى توازنها وتوازيها : أنه بدون الفعل البشري في التاريخ لن يتحقق شيء على الإطلاق !

« إن بعضنا ينتظر من هذا الدين – مادام هو المنهج الإلهي للحياة البشرية – أن يعمل في حياة البشر بطريقة سحرية خارقة ! دون اعتبار لطبيعة البشر ، ولطاقاتهم الفطرية ، ولواقعهم المادي ، في أية مرحلة من مراحل نموّهم ، وفي أية بيئة من بيئاتهم .

« وحين يرون أنه لا يعمل بهذه الطريقة ، وإنما هو في حدود الطاقة البشرية ، وحدود الواقع المادي للبشر ، وأن هذه الطاقة وهذا الواقع يتفاعلان معه ، ويتأثران به في فترات تأثراً واضحاً ، أو يؤثران في مدى استجابة الناس له ، وقد يكون تأثيرهما متضادان في فترات أخرى ، فتقعد بالناس ثقلة الطين وجاذبية المطامع والشهوات ، دون تلبية هتاف الدين أو الاتجاه معه في طريقه اتجاهاً كاملاً حين يرون هذه الظواهر فإنهم يصابون بخيبة أمل لم يكونوا يتوقعونها ! – مادام هذا الدين من عند الله – أو يصابون بخلخلة في ثقتهم بجدية المنهج الديني للحياة وواقعيته ويصابون بالشك في الدين إطلاقاً .

« وهذه السلسلة من الأخطاء تنشأ كلها من خطأ واحد هو عدم إدراك طبيعة هذا الدين ، وطريقته ، أو نسيان هذه الحقيقة الأولية البسيطة : أن هذا الدين منهج للحياة البشرية يتم تحقيقه في حياة البشر بجهد بشري ، في حدود الطاقة البشرية ، ويبدأ في العمل من النقطة التي يكون البشر عندها بالفعل من واقعهم المادي ، ويسير بهم إلى نهاية الطريق في حدود جهدهم البشري وطاقاتهم البشرية ، ويبلغ بهم أقصى ما تمكنهم طاقتهم وجهدهم من بلوغه . وميزته الأساسية أنه لا يغفل لحظة ، في أية خطة ، وفي أية خطوة ، عن طبيعة فطرة الإنسان وحدود طاقته وواقعه المادي أيضاً .. ولكن الخطأ ينشأ – كما تقدم – من عدم الإدراك لطبيعة هذا الدين أو نسيانها . ومن انتظار الخوارق التي لا ترتكن على الواقع البشري والتي تبدل فطرة الإنسان وتنشئه نشأة أخرى لا علاقة لها بفطرته وميوله واستعداده وطاقته وواقعه المادي كله .

« ليس لأحد من خلق الله أن يسأله — سبحانه — لماذا شاء أن يخلق الكائن الإنساني بهذه الفطرة ؟ ولماذا شاء أن تبقى فطرته هذه عاملة لا تمحى ولا تعدل ولا تعطل ، ولماذا شاء أن يجعل المنهج الإلهي يتحقق في حياته عن طريق الجهد البشري وفي حدود الطاقة البشرية ؟ ولكن لكل أحد من خلقه أن يدرك هذه الحقيقة ، ويراها وهي تعمل في واقع البشرية ، ويفسّر التاريخ البشري على ضوئها ، فيفقه خط سير التاريخ من ناحية ، ويعرف كيف يوجه هذا الخط من ناحية أخرى .

« هذا المنهج الإلهي الذي يمثله الإسلام — كما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم — لا يتحقق في دنيا الناس بمجرد تنزله من عند الله ، ولا بمجرد إبلاغه للناس وبيانه ، ولا يتحقق بالقهر الإلهي على نحو ما يمضي الله ناموسه في دورة الفلك وسير الكواكب وترتب النتائج على أسبابها الطبيعية ؛ إنما يتحقق بأن تحمله مجموعة من البشر ، تؤمن به إيماناً كاملاً ، وتستقيم عليه بقدر طاقتها ، وتجعله وظيفة حياتها وغاية آمالها ، وتجهد لتحقيقه في قلوب الآخرين وفي حياتهم العملية كذلك ، وتجاهد لهذه الغاية بحيث لا تستبقي جهداً ولا طاقة . تجاهد الضعف البشري ، والهوى والجهل ، في أنفسها وأنفس الآخرين ، وتجاهد الذين يدفعهم الضعف والهوى والجهل للوقوف في وجه هذا المنهج ، وتبلغ ، بعد ذلك كله ، من تحقيق هذا المنهج الإلهي إلى الحد والمستوى الذي تطيقه فطرة البشر على أن تبدأ بالبشر من النقطة التي هم فيها فعلاً ولا تغفل واقعهم ومقتضيات هذا الواقع في سير مراحل هذا المنهج وتتابعها ، ثم تنتصر هذه المجموعة على نفسها وعلى نفوس الناس معها تارة ، وتنهزم تارة بقدر ما تبذل من الجهد وتتخذ من الأساليب العملية ، وبقدر ما توفق في اختيار هذه الأساليب . وقبل كل شيء وكل جهد وكل وسيلة —: هنالك عنصر آخر : هو مدى تجرد هذه المجموعة لهذا الغرض ، ومدى تمثيلها لحقيقة هذا المنهج في ذات نفسها ، ومدى ارتباطها بالله صاحب هذا المنهج ، وثقتها به ، وتوكلها عليه .. »(٣٣) .

في التفسير الإسلامي تتوافق أفعال البشر مع إرادة الله ، تتناغم وتتلاقى ، ليس ثمة ارتطام أو تناقض أو تعارض كما يخيل للفكر الوضعي ، بل إن الأمر واضح بيّن : أن المصير الذي يختم به الله على هذه الحركة أو تلك ، وعلى هذه التجربة ، أو تلك ، إنما يستمد خطوطه وألوانه وتكويناته من صميم المقومات التي صاغت الحركة ، والخيوط التي نسجت التجربة ، وتبقى إرادة الله محيطة بالوجود والمصير ، ويبقى الابتلاء هو المحك الذي يشكل الوجود ويقود إلى الختم على المصير .

إن القرآن الكريم يسعى إلى أن يكشف للمسلمين عن طرف من حكمة الله

وتدبيره وراء الآلام التي تعرضوا لها ، والأحداث التي وقعت بأسبابها الظاهرة :

« .. ﴿ ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ﴾ ، لقد كان هناك قدر الله وراء أفعال البشر . فلما أن ضعفوا وتنازعوا وعصوا ، صرف الله قوتهم وبأسهم وانتباههم عن المشركين ، وصرف الرماة عن ثغرة الجبل ، وصرف المقاتلين عن الميدان فلاذوا بالفرار . وقع كل هذا مرتباً على ما صدر منهم ؛ لكن مدبراً من الله ليبتليهم بالشدة والخوف والهزيمة والقتل والقرح ، وما يتكشف عنه هذا كله من كشف مكنونات القلوب ، ومن تمحيص النفوس وتمييز الصفوف . وهكذا تقع الأحداث مرتبة على أسبابها ، وفي الوقت ذاته مدبرة بحسابها ، بلا تعارض بين هذا وذاك ، فلكل حادث سبب ، ووراء كل سبب تدبير »(٣٤) .

« إن التصوّر الإسلامي يتّسم بالتوازن المطلق بين تقرير الفاعلية المطلقة لقدر الله – سبحانه – وتحقق هذا القدر في الحياة الإنسانية من خلال نشاط الإنسان وفاعليته وعمله . إن سنة الله تجري بترتيب النتائج على الأسباب ، ولكن الأسباب ليست هي التي (تنشيء) النتائج ؛ فالفاعل المؤثر هو الله ، والله يرتب النتائج على الأسباب بقدره ومشيئته ومن ثَم يطلب إلى الإنسان أن يؤدي واجبه ، وأن يبذل جهده ، وأن يفى بالتزاماته . وبقدر ما يوفي بذلك كله يرتب الله النتائج ويحققها .. وهكذا يتوازن تصور المسلم وعمله ، فهو يعمل ويبذل ما في طوقه ، وهو يتعلق في نتيجة عمله وجهده بقدر الله ومشيئته .. »(٣٥) . .

١٥ – والتفسير الإسلامي للتاريخ يتميز بالشمولية والموضوعية والواقعية .

الشمولية التي تنظر إلى كل صغيرة وكبيرة في صيرورة الحدث التاريخي ، وتحسب حسابها لكل الأسباب ، وترفض الجنوح باتجاه النظرة أحادية الجانب ، كما يفعل الوضعيون ، فتؤكد على هذا السبب أو ذاك ، وتقف عند هذا الجانب أو ذاك ، مهملة الأسباب والجوانب الأخرى بالكلية حيناً ، واضعة إياها في المرتبة الثانية أو العاشرة حيناً آخر .

وبالموضوعية لأنه يصدر عن الله سبحانه فلا يميل به هوى أو مصلحة أوظن ، ولا تأسره فئة ، أو طبقة ، أو جماعة ، أو أمة ، ولا تحجب نفاذه وإحاطته تأثيرات نسبية لعصر أو مكان .. إنه فوق الأهواء والمصالح والظنون ، فوق الفئات والطبقات والجماعات ، فوق نسبيات الزمان والمكان .

وبالواقعية لأنه يقرّ سائر مكونات الواقعة التاريخية ، ويحترمها ، ويشير لها ، حتى ولو كانت ممارسة اقتصادية محرفة ، أو عملاً جنسياً ، أو طعاماً وشراباً ، ويذكر الأسماء بمسمياتها الحقيقية ، فلا تغدو الهزيمة – في تبرير ملتوٍ – نصراً ، ولا

تزيّف الوقائع لكي تخدم هذه الرؤية النسبية القاصرة أو تلك .

وسيّد يقف عند هذه الميزة المنهجية ، كما وقف عند الميزات المنهجية السابقة ، ويردّ معطيات القرآن التي تتحدث عن قضايا من مثل الربا والإنفاق والفساد الاجتماعي ، وما يبدو في ظاهره بعيداً عن المجرى الأساسي للعرض المنصبّ على معركة حربية ، ويردّها إلى : هذه القاعدة المنهجية ، وتلك النظرة الشمولية ، في كتاب الله وفي نسيج الإسلام على السواء .

« قبل أن يدخل السياق ـ القرآني ـ في صميم الاستعراض للمعركة ـ معركة أُحد ـ والتعقيبات على وقائعها وأحداثها ، تجيء التوجيهات المتعلقة بالمعركة الكبرى ، المعركة في أعماق النفس وفي محيط الحياة ، يجيء الحديث عن الربا والمعاملات الربوية ، وعن تقوى الله وطاعته وطاعة رسوله ، وعن الإنفاق في السرّاء والضرّاء ، والنظام التعاوني الكريم المقابل للنظام الربوي الملعون ، وعن كظم الغيظ والعفو عن الناس وإشاعة الحسنى في الجماعة ، وعن الاستغفار من الذنب والرجوع إلى الله وعدم الإصرار على الخطيئة .

« .. تجيء هذه التوجيهات كلها قبل الدخول في سياق المعركة الحربية لتشير إلى خاصية من خواص هذه العقيدة : الوَحدة والشمول في مواجهة هذه العقيدة للكينونة البشرية ونشاطها كلها ، ورده إلى محور واحد : محور العبادة لله والعبودية والتوجه إليه بالأمر كله . والوحدة والشمول منهج الله وهيمنته على الكينونة البشرية في كل حال من أحوالها ، وفي كل جانب من جوانب نشاطها . ثم تشير تلك التوجيهات بتجمعها هذا إلى الترابط بين كل ألوان النشاط الإنساني ، وتأثير هذا الترابط في النتائج الأخيرة لسعي الإنسان كله .

« والمنهج الإسلامي يأخذ النفس من أقطارها ، وينظم حياة الجماعة جملة لا تفاريق ومن ثَم هذا الجمع بين الإعداد والاستعداد للمعركة الحربية ، وبين تطهير النفوس ونظافة القلوب والسيطرة على الأهواء والشهوات ، وإشاعة الود والسماحة في الجماعة ، فكلها قريب من قريب ، وحين نستعرض بالتفصيل كل سمة من هذه السمات وكل توجيه من هذه التوجيهات يتبين لنا ارتباطها الوثيق بحياة الجماعة المسلمة ، وبكل مقدراتها في ميدان المعركة وفي سائر ميادين الحياة »(٣٦) .

إن الرؤية الإسلامية ليست مثالية تطرح أخيلة معلّقة لا يمكن تنفيذها تاريخياً ، ومجتمعاً ملائكياً من البشر لا يخطىء ولا ينحرف ولا يضلّ به الطريق ، بل يظل معلقاً هناك في القمة . وهي ـ أي : الرؤية الإسلامية ـ ليست ـ كذلك ـ صمّاء تدعو إلى قيام مجتمع يتساوى فيه الجميع

كالأرقام ، ويسيرون عبر طريق محدد ، مرسوم سلفاً ، دونما جهد منهم أو مقاومة .

إنما هي رؤية واقعية متوازنة ، تجد رصيدها الكبير من إمكانيات التنفيذ ، وتنوّعها الذي ينسجم وحجم الإنسان ، وقدراته ، وطموحاته .

« إن النفس البشرية ليست كاملة – في واقعها – ولكنها في الوقت ذاته قابلة للنمو والارتقاء ، حتى تبلغ أقصى الكمال المقدر لها في هذه الأرض . وها نحن أولاء نرى – في معركة أُحد – قطاعاً من القطاعات البشرية – كما هو وعلى الطبيعة – ممثلاً في الجماعة التي تمثل قمة الأمة التي يقول الله عنها : ﴿ **كنتم خير أمة أُخرجت للناس** ﴾ ، وهم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم .. فماذا نرى ؟ نرى مجموعة من البشر فيهم الضعف وفيهم النقص .. وفيهم من ينهزم وينكشف .. وكل هؤلاء مؤمنون مسلمون ؛ ولكنهم كانوا في أوائل الطريق ، كانوا في دور التربية والتكوين ، ولكنهم كانوا جادين في أخذ هذا الأمر ، مسلمين أمرهم لله ، مرتضين قيادته ، ومن ثم لم يطردهم الله من كنفه ، بل رحمهم وعفا عنهم .. ثم وصلوا في النهاية وغلبت فيهم النماذج التي كانت في أول المعركة معدودة .. ولكنهم مع هذا ظلوا بشراً ، وظل فيهم الضعف والنقص والخطأ .. إنها الطبيعة البشرية التي يحافظ عليها هذا المنهج ولا يبدلها أو يعطلها ، ولا يحملها ما لا تطيق ، وإن بلغ بها الكمال المقدر لها في هذه الأرض »(٣٧) .

١٦ – ومن عجب أن أشد مذاهب التفسير التاريخي جماعية وإنكاراً للفردية ، وهي المادية التاريخية ، ينتهي الأمر بأصحابها إلى نوع من الفردية في التعامل مع (الزعيم) والنظر إليه ، حيّا وميّتا ، فيما يعد تناقضاً مكشوفاً بين النظرية وبين الواقع المشهود ، لقد غدا ماركس ولنين وستالين وماوتسي تونج .. الخ أرباباً ليس من دون الله ، فالشيوعيون لا يقرّون وجوده ، ولكن من فوق العقيدة الماركسية نفسها تلك التي تنكر دور الفرد في التاريخ وتلغيه إلغاءً ، ثم إذا بهؤلاء ، وغيرهم من قادة الفكر والحركة الشيوعية في العالم ، يتألهون على الأتباع ، ويتضخم دورهم (البطولي) فيما يضعهم في مرتبة الآلهة التي لا تخطيء ، ولا يردّ لها رأي أو ينقض لها كلام . ويزداد الأتباع في المقابل انكماشاً وتضاؤلاً أمام طواغيتهم هؤلاء ويتنازلون عن كل حق مادي أو أدبي من حقوقهم الأساسية ، وملامحهم كبشر لكي ما يلبثوا أن يغدوا مجرد أدوات لا حول لها ولا قوة ، تؤمر فتطيع ، ويصرخ في وجوهها فتلبي وتذعن ، في تجربة تاريخية يقال إن الحكم فيها للجماعة لا للفرد .

بل إن الأمر ليتجاوز هذا كله إلى صنمية عجيبة تمتد إلى ما بعد وفاة

الطاغوت لكي تحنطه وتجمّله ، على الطريقة الفرعونية التي تتعامل مع فرعون كما لو كان ابن الآلهة ، ثم تضعه في معارض من زجاج تقف إزاءها طوابير العابدين بخشوع لكي تمّر قريباً منها فتلقي تحية الذلّة وتتلقى البركات .

هذا في إطار دولة ترى في المادية التاريخية التي تنكر دور الأفراد ، عقيدة وفلسفة ودستوراً ، فماذا في إطار رؤية الإسلام وتجربته ؛ ماذا بصدد الرسول القائد الذي جاء بهذا الدين وقاده في الرحلة الصعبة إلى مشارف الفوز ؛ ماذا بصدد محمد عليه السلام ، وهو النبي الموصول بالسماء ،وبقدر الله ، وملأه الأعلى ؛ لا شيء على الإطلاق مما يشمّ منه رائحة تعبّد أو صنمية أو استعلاء .. إنه واحد من الناس يعيش كما يعيشون ، ويموت كما يموتون ، والذي يبقى هو العقيدة وحدها .

ذلك ملمح أصيل من ملامح الرؤية العقيدية في الإسلام ، وبالتالي من ملامح نظرة الإسلام للتاريخ وعناصر تكوينه ، إن الأنبياء – كأفراد متميزين – يسهمون ليس في صياغة التاريخ فحسب ، ولكن في قيادته وتوجيهه ، إلّا أن هذا لا يجنح بهم إلى أن يكونوا فوق الناس ، ولا أن يجرّد أتباعهم ، إزاءهم ، من محتواهم البشري ، إذا صحّ التعبير ، لكي يغدوا أرقاماً وأدوات ؛ إنهم جميعاً يسهمون في صنع التاريخ والموجّه الأبدي هو العقيدة التي تنزّلت من السماء . إن كتاب الله وسنة رسوله عليه السلام تقول بهذا ، وتجربة خلفائه الراشدين تؤكده وتعزّزه .

إن سيّد يقف عند هذا الملمح في التفسير الإسلام للتاريخ وهو يقرأ هذه الآية ﴿ **وما محمد إلّا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضرّ الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين** ﴾[٣٨] .

« إن محمداً ليس إلّا رسولاً سبقته الرُسُل . وقد مات الرسل ، ومحمد سيموت كما مات الرسل قبله .. إنه جاء ليبلغ كلمة الله ، والله باق ولا يموت ، وكلمته باقية لا تموت ، وما ينبغي أن يرتد المؤمنون على أعقابهم إذا مات النبي الذي جاء ليبلغهم هذه الكلمة أو قُتِل .. إن البشر إلى فناء والعقيدة إلى بقاء ، ومنهج الله للحياة مستقل في ذاته عن الذين يحملونه ويؤدونه إلى الناس من الرسل والدعاة على مدار التاريخ .

« .. إن الدعوة أقدم من الداعية ، وأكبر وأبقى .. فدعاتها يجيئون ويذهبون وتبقى هي على الأجيال والقرون ، ويبقى أتباعها موصولين بمُصْدِرِها الأول الذي أرسل بها الرسل ، وهو باق – سبحانه – يتوجه إليه المؤمنون .

« .. وكأنما أراد الله سبحانه بهذه الآية أن يفطم المسلمين عن تعلّقهم الشديد

بشخص النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو حي بينهم ، وأن يصلهم مباشرة بالنبع .. وأن يجعل ارتباطهم بالإسلام مباشرة ، وأن يجعل مسؤوليتهم في هذا العهد أمام الله بلا وسيط حتى يستشعروا تبعتهم المباشرة التي لا يخليهم منها أن يموت الرسول – صلى الله عليه وسلم – أو يقتل ، فهم إنما بايعوا الله **وهم أمام الله مسئولون** »(٣٩) .

١٧ – ويؤكد سيد ، مراراً ، اعتماداً على المعطيات القرآنية نفسها ، وحدة الحركة الدينية في التاريخ ، بدءً بآدم وانتهاءً بالرسول عليهما السلام ، مروراً بالأنبياء الكرام جميعاً وبالمنتمين إليهم جيلاً بعد جيل . إن مصدر التلقّي واحد ، والهدف واحد ، والشريعة واحدة ، والخصم واحد ، والمعركة واحدة وإن امتد بها الزمن وشطّت بها الأماكن والديار . ويتمخض عن ذلك كله خبرة متوحدة تقتبس منها وتمشي على هديها أجيال المؤمنين جيلاً بعد جيل .

إن (الجماعة المؤمنة) ، بقيادة هذا النبي الكريم أو ذاك ، هي وَحدة العمل والفاعلية في التاريخ : ليست الطبقة ، أو الدوَلة ، أو العِرق ، كما ترى نظريات التفسير المادية أو المثالية أو الحضارية أو غيرها . الجماعة المؤمنة تواجه قوى الكفر والضلال وتقود حركة التاريخ صوب الأحسن والأرقى ، وتخرج بالناس من ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده .

من الظلمات إلى النور .. ذلك هو الشعار الواحد الذي رفعه الأنبياء جميعاً ، وقاتلت دونه كل الأجيال التي انتمت إليه قرناً بعد قرن .

فإذا كان المسلمون قد ابتلوا في (أُحد) ، وزلزلوا في الخندق ، وتراجعوا في (حنين) ، فإن جماعات كثيرة من إخوانهم المؤمنين الذين سبقوهم على الدرب ، ابتلوا وزلزلوا وتراجعوا ؛ ولكنهم بإصرارهم ، بيقينهم ، بإيمانهم بعدالة قضيتهم ، ثبتوا وتماسكوا وتفوقوا وحقّقوا الانتصار الموعود .

﴿ وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبّت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين ﴾.. إن المثل الذي يضربه الله – سبحانه – للمسلمين في أُحد ، مثل عام ، لا يحدّد فيه نبيّاً ، ولا يحدّد فيه قوماً ؛ إنما يربطهم بموكب الإيمان ، ويعلمهم أدب المؤمنين ، ويصور لهم الابتلاء كأنه الأمر المطرد في كل دعوة وفي كل دين ، ويربطهم بأسلافهم من أتباع

الأنبياء ، ليقرّر في حسّهم قرابة المؤمنين للمؤمنين ، ويقرّر في أخلادهم أن أمر العقيدة كله واحد ، وأنهم كتيبة في الجيش الإيماني الكبير .. » (٤٠) .

١٨ – ويشير سيّد إلى ما يعدّ ملمحاً أساسياً آخر من ملامح التفسير الإسلامي للتاريخ : « إن أية فكرة ، أو عقيدة ، أو شخصية ،أو منظمة .. إنما تحيا وتعمل وتؤثر بمقدار ما تحمل من قوة كامنة وسلطان قاهر ؛ هذه القوة تتوقف على مقدار ما فيها من (الحق) أي بمقدار ما فيها من توافق مع القاعدة التي أقام الله عليه الكون ، ومع سنن الله التي تعمل في هذا الكون . وعندئذ يمنحها الله القـوة والسلطان الحقيقيين الفاعلين المؤثرين في هذا الوجود ؛ وإلّا فهي زائفة باطلة ضعيفة واهية مهما بدا فيها من قوة والتماع وانتفاش .

« والمشركون يشركون مع الله آلهة أخرى في صور شتى ، ويقوم الشرك ابتداء على إعطاء غير الله – سبحانه – شيئاً من خصائص الألوهية ومظاهرها .. فماذا تحمل هذه الآلهة من الحق الذي أقام الله عليه الكون ؛ إن الله الواحد خلق هذا الكون لينتسب إلى خالقه الواحد ، وخلق هذه الخلائق لتقر له بالعبودية وحده بلا شريك ، ولتتلقى منه الشريعة والقيم بلا منازع ، ولتعبده وحده حق عبادته بلا أنداد . فكل ما يخرج على قاعدة التوحيد في معناها الشامل ، فهو زائف باطل ، مناقض للحق الكامن في بنية الكون ، ومن ثَم فهو واه هزيل ، لا يحمل قوة ولا سلطانا ، ولا يملك أن يؤثر في مجرى الحياة ، بل لا يملك عناصر الحياة ولا حق الحياة !

« ومادام أولئك المشركون يشركون بالله ما لم ينزل به سلطانا ، من الآلهة والعقائد والتصورات ، فهم يرتكنون إلى ضعف وخواء ، وهم أبداً خوّارون ضعفاء وهم أبداً في رعب حيثما التقوا بالمؤمنين المرتكنين إلى الحق ذي السلطان .

« وإننا لنجد مصداق هذا الوعد كلما التقى الحق والباطل . وكم من مرة وقف الباطل مدجّجاً بالسلاح أمـام الحق الأعزل ، ومع ذلك كان الباطل يحتشد احتشاد المرعوب ، ويرتجف من كل حركة وكل صوت وهو في حشده المسلّح المحشود . فأما إذا أقدم الحق وهاجم فهو الذعر والفزع والشتات والاضطراب في صفوف الباطل ، ولو كانت له الحشود ، وكان للحق القلة تصديقاً لوعد الله **﴿ سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل بـه سلطانا ﴾** .. » (٤١) .

لكن سيّد لا يقف عند هذا الجانب من الصورة ، وينتقل – في مكان آخر – إلى الجانب الثاني لكي يجيب ؛ من خلال

المعطيات القرآنية نفسها ، على سؤال ملح طالما حاك في أذهان المؤمنين أنفسهم : « لماذا يصاب الحق وينجو الباطل ويعود بالغلبة والغنيمة ؟ أليس هو الحق الذي ينبغي أن ينتصر ؟ وفيم تكون للباطل هذه الصولة ؟ وفيم يعود الباطل من صدامه مع الحق بهذه النتيجة وفيها فتنة القلوب وهزّة ؟

« ولقد وقع بالفعل أن قال المسلمون يوم أُحد في دهشة واستغراب ﴿ **أنّى هذا** ﴾ ، ففي المقطع الختامي للمعركة يجيء الجواب الأخير ، ويريح الله القلوب المتعبة ، ويجلو كل خاطرة تتدسس إلى القلوب من هذه الناحية ، ويبين سنته وقدره وتدبيره في الأمر كله : أمس واليوم وغداً ، وحيثما التقى الحق والباطل في معركة فانتهت بمثل ما انتهت إليه أُحد .

« إن ذهاب الباطل ناجياً في معركة من المعارك ، وبقاءه منتفشاً فترة من الزمان ، ليس معناه أن الله تاركه ، أو أنه من القوة بحيث لا يغلب ، أو بحيث يضرّ الحق ضرراً باقياً قاضياً ؛ وأن ذهاب الحق مبتلى في معركة من المعارك ، وبقاءه ضعيف الحول فترة من الزمان ليس معناه أن الله مجافيه أو ناسيه ، أو أنه متروك للباطل يقتله ويرديه !! كلا إنما هي حكمة وتدبير ، هنا وهناك : يملي للباطل ليمضي إلى نهاية الطريق ، وليرتكب أبشع الآثام ، وليحمل أثقل الأوزار ، ولينال أشد العذاب باستحقاق ؛ ويبتلي الحق ، ليميز الخبيث من الطيب ، ويعظم الأجر لمن يمضي مع الابتلاء ويثبت ؛ فهو الكسب للحق والخسارة للباطل ، مضاعفاً هذا وذاك هنا وهناك »[(٤٢)] .

١٩ - وحتى (الشيطان) ، فإن له في التفسير الإسلامي للتاريخ مكانة ! إنه الباطل مجسّداً في حركة التاريخ ، وإنه ليقف من وراء كل محاولات الإفساد والتخريب والتفكك والتحلّل والدمار في تاريخ البشرية . إنه نقيض الإيمان ، والبناء ، والإصلاح ، والتماسك والتقدم ، وإنه ليبذل جهده الدائم الموصول لتحقيق أهدافه المضادة بكل صيغة ، وبكل أسلوب ، ومن خلال نظم وزعامات وطواغيت وأتباع يسعى إلى وقف حركة الإيمان والتقدم ، والخروج بالناس من الظلمات إلى النور .

وهو يحاول « أن يجعل أولياءه مصدر خوف ورعب ، وأن يخلع عليهم سمة القوة والهيبة . ومن ثَم ينبغي أن يفطن المؤمنون إلى مكر الشيطان وأن يبطلوا محاولته ؛ فلا يخافوا أولياءه هؤلاء ولا يخشوهم ؛ بل يخافوا الله وحده ، فهو وحده القوي القاهر القادر الذي ينبغي أن يخاف ﴿ **إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين** ﴾ .

« إن الشيطان هو الذي يضخم من شأن أوليائه ، ويلبسهم لباس القوة والقدرة ، ويوقع في القلوب أنهم ذوو حول وطول ، وأنهم يملكون النفع والضرّ ، ذلك

ليقضي بهم أغراضه ، وليحقق بهم الشرّ في الأرض والفساد ، وليخضع لهم الرقاب ويطوع لهم القلوب ، فلا يرتفع في وجوههم صوت بالإنكار ، ولا يفكر أحد في الانتقاض عليهم ودفعهم عن الشرّ والفساد .

« والشيطان صاحب مصلحة في أن ينتعش الباطل ، وأن يتضخم الشرّ وأن يتبدى قوياً قاهراً بطاشاً جباراً ، لا تقف في وجهه معارضة ، ولا يصمد له مدافع ، ولا يغلبه من المعارضين غالب .. فتحت ستار الخوف والرهبة ، وفي ظل الإرهاب والبطش ، يفعل أولياؤه في الأرض ما يُقِرّ عينه : يقلبون المعروف منكراً والمنكر معروفاً ، وينشرون الفساد والباطل والضلال ، ويخفقون صوت الحق والرشد والعدل ، ويقيمون أنفسهم آلهة في الأرض تحمي الشرّ وتقتل الخير ، دون أن يجرؤ أحد على مناهضتهم والوقوف في وجههم ومطاردتهم وطردهم من مقام القيادة ، بل دون أن يجرؤ أحد على تزييف الباطل الذي يروّجون له وجلاء الحق الذي يطمسونه .

« والشيطان ماكر خادع غادر ، يختفي وراء أوليائه ، وينشر الخوف منهم في صدور الذين لا يحتاطون لوسوسته ، ومن هنا يكشفه الله ويوقعه عارياً لا يستره ثوب من كيده ومكره ، ويعرف المؤمنين الحقيقة : حقيقة مكره ووسوسته ليكونوا منها على حذر ، فلا يرهبوا أولياء الشيطان ولا يخافوهم ، فهم وهو أضعف من أن يخافهم مؤمن يركن إلى ربه ويستند إلى قوته . إن القوةَ الوحيدة التي تُخشى وتُخاف هي القوةُ التي تملك النفع والضرّ ، هي قوةُ الله ، وهم حين يخشونها وحدها يكونون أقوى الأقوياء ؛ فلا تقف لهم قوة في الأرض ، لا قوة الشيطان ، ولا قوة أولياء الشيطان ﴿ **فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين** ﴾ .. »[(٤٣)].

٢٠ – وإذا كانت ثمة حتمية في التاريخ البشري فإنها حتمية الموت الذي يختم على حياة الناس جميعاً : قادة وأُناساً عاديين ، أنبياء وأتباعاً ﴿ **إنك ميت وإنهم ميتون** ﴾[(٤٤)] ، ﴿ **وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل** ﴾[(٤٥)] ، ﴿ **أينما كنتم يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة** ﴾[(٤٦)] ... الخ . ولكن الإسلام يطرح تصوره المتميز للموت فيمنحه بعداً جديداً ، ويحوله من إرادة انكماش واستلاب إلى وسيلة انتشار وعطاء . إنه في المنظور الإسلامي – والديني عموماً – ليس سوى نقلة إلى عالم الخلود ، وأن الشهداء على وجه الخصوص لن يطويهم الموت بالمعنى المعروف ، ولكنهم يظلون أحياء . إن هذا التصوّر ، أو هذه الحقيقة المؤكدة قرآنياً بعبارة أدقّ ، لن يقتصر مردودها على نطاق الذات المؤمنة ، ولكنه يتحول إلى فعل إيجابي على مستوى الجماعة ، إلى فعل تاريخي يدفع حشود

المؤمنين إلى مزيد من الفاعلية والعطاء ، ويحضّهم على الإقدام والاقتحام والتضحية ، ويكسر في دروبهم متاريس الحزن والتردّد والخوف ، فيختزلون وهم يركضون إلى الشهادة حيثياتِ الزمن والمكان ، ويفعلون الأفاعيل ، ويجابهون التاريخ وحركته بطاقات تتجاوز منطق الحساب والقياس ، وتتآبى على التحليل والتعليل . إن تاريخ الإسلام في فتراته المتألقة ، فترات التقدم والازدهار والانتشار ، عصور التغيير الجذري العميق لخرائط العالم ، وإقامة دنيا سعيدة ، متوحدة ، عادلة ، كانت تسهم في صنعه هذه الرؤية ، بينما في المذاهب الوضعية يغدو الموت عنصر ابتزاز واستلاب ، ونكوص وزوال ، يقطع ويشلّ ، ويتصدى لمشاريع الإنسان .

في الرؤى الوضعية يغدو الموت غياباً ، أما في التصور الإسلامي فإنه حضور في قلب التاريخ .

« .. إن جلاء هذه الحقيقة الكبيرة ذو قيمة ضخمة في تصوّر الأمور . إنها تعدّل ، بل تنشىء إنشاء ، تصوّرَ المسلم للحركة الكونية التي تتنوع معها صور الحياة وأوضاعها وهي موصولة لا تنقطع ، فليس الموت خاتمة المطاف ، بل ليس حاجزاً بين ما قبله وما بعده على الإطلاق . إنها نظرة جديدة لهذا الأمر ، ذات آثار ضخمة في مشاعر المؤمنين ، واستقبالهم للحياة والموت ، وتصورهم لما هنا وما هناك ...

« .. إنها تعديل كامل لمفهوم الموت – متى كان في سبيل الله – وللمشاعر المصاحبة له في نفوس المجاهدين أنفسهم ، وفي النفوس التي يخلفونها من ورائهم ، وإفساح لمجال الحياة ومشاعرها وصورها ، بحيث تتجاوز نطاق هذه العاجلة ، كما تتجاوز مظاهر الحياة الزائلة ، وحيث تستقر في مجال فسيح عريض لا تعترضه الحواجز التي تقوم في أذهاننا وتصوراتنا عن هذه النقلة من صورة إلى صورة ، ومن حياة إلى حياة .

« ووَفقاً لهذا المفهوم الجديد ، للموت ، سارت خطى المجاهدين الكرام في طلب الشهادة – في سبيل الله – وكانت منها تلك النماذج (الفريدة) في التاريخ ... »[٤٧] .

* * *

وهكذا يتأكد لنا ما سبق وأنْ بدأنا به هذا الفصل من أن سيّد – عبر ظلاله – قد قدّم مساحات واسعة مما يمس التفسير الإسلامي للتاريخ من قريب أو بعيد ، بشكل مباشر أو غير مباشر ، وأنه ما من مسألة أساسية لها علاقة ما بالموضوع إلا ونجد الرجل يقول كلمته فيها من خلال تفسيره لهذا المقطع أو ذاك ، ولهذه الآية أو تلك ، ومن خلال مقدماته التحليلية الخصبة لسور القرآن ، وبخاصة تلك التي تحدثت عن وقائع تاريخية مما شهده عصر الرسالة .





الهوامش

(١) الآية رقم [١١] .
(٢) في ظلال القرآن ٧ / ١٤٢ (الطبعة الثالثة) ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت (بدون تاريخ) .
(٣) الظلال ١٤٢/٧ – ١٤٣ .
(٤) سورة الأنعام : الآية [٦] .
(٥) الظلال ١٣٠/٧ – ١٣١ .
(٦) الظلال ١٦٦/٩ – ٢٠١ وانظر المرجع نفسه ٤٩/١٠ – ٥٠ ، ٧٦/١١ – ٨٤ . وانظر على وجه الخصوص النصّ الذي اعتمده سيد من ابن القيم والمبادىء الأساسية التي استمدها منه فيما يمكن أن يشكل الملامح الأساسية لقانون الجهاد ١٦٦/٩ – ١٦٩ . وانظر معالم في الطريق من ٥٥ – ٨٢ (الطبعة السادسة) ، دار الشروق ، القاهرة – ١٩٧٩ .
(٧) الظلال ٢١٨/٩ .
(٨) الظلال ٢٢٧/٩ – ٢٢٨ .
(٩) الظلال ٢٣٨/٠٩ – ٢٤٠ .
(١٠) سورة النساء: الآية [١٩] .
(١١) الظلال ٢٤٦/٩ – ٢٤٧ .
(١٢) سورة المدثر : الآية [٣١] .
(١٣) الظلال ٢٤٩/٩ – ٢٥١ .
(١٤) الظلال ٢٥٤/٩ .
(١٥) الظلال ٣٦/١٠ .
(١٦) سورة الأنفال : الآية [٥٣] .
(١٧) الظلال ٣٧/١٠ .
(١٨) سورة الأنفال : الآية [٥٨] .
(١٩) الظلال ٤٧/١٠ .
(٢٠) سورة الأنفال : الآيتان [٦٥ – ٦٦] .
(٢١) الظلال ٥٨/١٠ – ٥٩ ، وانظر تفسيره لآيات معركة حنين ١٦٤/١٠ – ١٦٦ وكذلك ٢٥١/١٠ – ٢٥٢ .
(٢٢) الظلال ٧٦/١٠ – ٧٩ .
(٢٣) سورة البقرة : الآيات [١ – ٤] .
(٢٤) الظلال ١٣٧/٧ .
(٢٥) الظلال ١٤٠/٧ – ١٤١ .
(٢٦) الظلال ٢٦١/٧ وانظر تفسيره لقوله تعالى : ﴿ **وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو** ﴾ من سورة

الأنعام ، حيث يقف سيد طويلاً أمام البعد الغيبي للتصور الإسلامي ويردّ على ضلالات الجاهلية المادية المعاصرة من خلال معطيات العلم نفسه الذي تبني صرحها عليه (٧/٢٥٠ ـ ٢٦٢) وانظر كذلك كتاب (العلم في مواجهة المادية) للمؤلف (مؤسسة الرسالة ، بيروت ـ ١٩٧٣) .

(٢٧) الظلال ٤/٦١ ـ ٦٢ .
(٢٨) الظلال ٤/٦٢ ـ ٦٥ وانظر ٤/١٦٦ ـ ١٦٧ .
(٢٩) الظلال ٤/٦٥ .
(٣٠) سورة آل عمران : الآيات [١٣٧ ـ ١٤٢] .
(٣١) الظلال ٤/٨٠ ـ ٨١ وانظر ٤/٨١ ـ ٩٠ .
(٣٢) الظلال ٤/٦٧ . وانظر ٤/٦٨ ـ ٧٠ .
(٣٣) الظلال ٤/١٧٥ ـ ١٦٠ . وانظر ٤/١٦١ ـ ١٦٢ .
(٣٤) الظلال ٤/١٠٥ ـ ١٠٦ .
(٣٥) الظلال ٤/١٢٠ . وانظر ٤/١٢١ ، ٤/١٣٥ ـ ١٣٩ .
(٣٦) الظلال ٤/٧٠ ـ ٧١ ، وانظر ٤/١٦٤ ـ ١٦٦ .
(٣٧) الظلال ٤/١٦٢ ـ ١٦٤ .
(٣٨) سورة آل عمران : الآية [١٤٤] .
(٣٩) الظلال ٤/٩٠ ـ ٩٤ .
(٤٠) الظلال ٤/٩٥ ـ ٩٧ .
(٤١) الظلال ٤/١٠٢ ـ ١٠٣ .
(٤٢) الظلال ٤/١٥١ ـ ١٥٢ . وانظر ٤/١٥٢ ـ ١٥٧ .
(٤٣) الظلال ٤/١٤٩ ـ ١٥٠ .
(٤٤) سورة الزمر : الآية [٣٠] .
(٤٥) سورة آل عمران : الآية [١٤٤] .
(٤٦) سورة النساء : آية [٧٨] .
(٤٧) الظلال ٤/١٤٢ ـ ١٤٥ . وانظر ٤/٥٤ ـ ٥٨ .

* * *